

# ورقة التوت

راوية

قاسم توفيق

تأخير

الساحة خالية إلا من الذكريات، وبقع الدم المنثورة كالحبة لقدمها،  
مترهلة، هرمة طالها الملل والنسيان، لم يعد يتذكر أحد لمن تكون،  
أي كائن أسقط في جوف الغضب، واستلب من الجدران المغلقة.

لم تعد هذه البقع تذكر العصبي التي أنزفتها على الاسمنت لتختلط  
رغم الغسل الدائم بالأرض حتى صارت منها .

## غياب الضجيج

- أرجل متأنية بحركات موقوتة.
- أجسام مهندمة أنيقة.
- أفكار تصخب في الرؤوس بصمت.
- المزاليج أخرجت من حلقاتها، وأسقطت مثل جثث هادمة وسط  
الأبواب.
- الأبواب الحديدية الثقيلة مشرعة للهواء .
- كل ذلك حل مكان الضجيج، فصار المكان حالة هدوء فريدة .
- الصغار – المخبرون الصغار – ركنوا إلى إجازة طويلة ، والى  
عسعة البدايات .
- والكبار - المحققون الكبار – صاروا يبحثون في الأمور  
العظيمة.

لم يعد الأمر كما كان، سحب طلبة المعاهد والجامعات، والتفنن في تعذيبهم وقراءة اعترافاتهم المتشابهة، والاستنكارات، حالة الكفر التي تتبعها التوبة ويقبلها الرفاق مرغمين ، فلا طاقة للمحاسبة والعقاب، الأعداد قليلة والبراءات متزايدة ومعلنة وسلال المبررات مرصوفة مملوءة .

# الفصل الأول

## الرجل الثاني

### (1)

منذ أن وطئت قدماه هذه الأرض، حملته الحافلة من المطار إلى حيث الشقة التي سيقطن بها، كان ذلك قبل عشر سنين ويزيد، شقة

واسعة بها خمس غرف وصالة ضخمة أعدت كلها كما يتمنى، مكان للعمل، مرسم صنع من خشب بلوط محروق ومقعد من نفس اللون. مكتب صغير، رفوف، ومصباح مكتب منحن مثل عنق طويلة بثقل، أزهار جورية مرسومة بخطوط انطباعية، أقلام كثيرة، أوراق، ألواح رسم، مساند، زاوية لركوة القهوة، دلة عربية للقهوة، فناجين موشاة بزخرفة صينية، على الجدار علقت رسومات وصور لا يذكر أين رآها

أما البيت فقد فرش بالكامل، غرفة النوم، غرف نوم للأطفال، ألعاب مختلفة تناسب أعمار الأولاد، مقاعد وثيرة، أجهزة كهربائية، جهاز كومبيوتر للعب وآخر للعمل، هاتف متحرك وأشياء أخرى كثيرة.

في الطريق إلى هنا، عبرت الحافلة من أمام بحيرة صغيرة، صافية. كان يتلفت حوله محاولاً إخفاء دهشته بدهشة الأولاد بهذا الامتداد الأخضر، والطرق العريضة المنظمة، في ذهنه شيء يشوش هذه الاحتفالية التي يعيشها، لكنه كان يحاول طردها ملقياً بها على الوقت، فقد كان يفكر باللغة. كيف للأولاد أن يتعلموا الآن لغة ثالثة؟ لا توجد لديهم أية فكرة عنها مثله هو تماماً. ففي مطلع حياته في إنجلترا عندما أرسل ببعثة للدراسة، تعرف إلى زوجته دايانا وتزوجها قبل أن ينهى دراسته

حفاظاً على روحه الشرقية الطاهرة من الانحراف، ولنفس السبب جاء أولاده الثلاثة محمد أكبرهم ثم علي، فالصغيرة التي حملت اسم أمه. فاطمة.

استطاع الولدان أن يتعلما اللغتين كما يتمنى. أحبا العربية كثيرا. وحفظا أشعار المتنبي ونزار قباني وكذلك مسرحيات شكسبير وموسيقى البوب، أما الصغيرة فاطمة فقد كانت ثقيلة اللسان عندما تحاول أن تتكلم العربية فكانت تستخدم الألفاظ الإنجليزية للتعبير عن ذاتها أكثر. قال إنها ستتعلم مع الوقت.

لكنه الآن يفكر بمشكلة جديدة مختلفة، لغة ثالثة قاسية كالحجر يشك بأنه قادر على إتقانها على الرغم من قدرته على الحفظ.

عندما وصله خطاب الدعوة من المؤسسة الهندسية السويدية تردد قليلا، لكنه أمام حالة الحرب الدائرة في البلاد منذ سنين طويلة والتي بدأ أنها لن تنتهي، ونتيجة لاكتئاب ديانا المستمر، وللدافع الذي داخله منذ طفولته بأن يكون بعيدا عن الأحداث العنيفة، وان يلتجئ إلى أية زاوية تكفيه شر الناس والأقدار، قرر الموافقة. قال وهو يراقب الخطاب للمرة الألف:

- سأخرج وعائلتي من هذا الزمان.

تقدم بطلب إلى الدوائر المختصة، وظن فيما بعد ان طلبه قد فقد.

أشهر تجاوزت السنة وهو ينتظر دون أن يجرؤ على معاودة البحث فيما صار إليه مصير هذا الطلب. فالبلد في حالة حرب والفرار من البلاد يعودن من الخونة.

فكر بالمبررات التي ساقها في طلبه للسفر، أشار إلى مرض  
زوجته، وتقدم بشهادات طبية تثبت أنها تعاني من حالة اكتئاب شديدة،  
وأبدى الرغبة في مواصلة البحث والدراسة في مجال الهندسة حتى  
يعود لخدمة الوطن والزعيم .

صار يقضي النهار والليل الطويل بانتظار الرد. وكلما طالت الأيام  
تعاظم خوفه، حتى وصل إلى حالة من الرعب، لا سيما انه كان يبعد  
عن تفكيره أي احتمال ايجابي يبرر عدم الإجابة، فكر باحتمال ضياع  
الطلب لكنه ابعده هذه الفكرة من رأسه عندما أعاد في ذاكرته رسم  
الصورة التي استطاع أن يقدم فيها هذا الطلب، من متابعة إرساله بيد  
المراسل الخاص حيث أكد على تسليمه للشخص المعني في الدوائر  
المعنية. ولقد أكد له على أهمية الإسراع في انجاز هذه المعاملة.

و عندما وجد أن هذا الاحتمال ضعيف، خمن بأن الرفض في بعض  
الأحيان لا يعلن عنه وان الإهمال للطلب يعني ذلك بالتأكيد. ولكنه أمام  
التجارب المشابهة التي يسمع عنها كل يوم استبعد هذا الاحتمال أيضا  
حتى حسم الأمر:-

- هنالك شيء خطير يعد له .

كان يفكر بما كتبه في طلب السفر، وهو يخشى أن يكون قد أشار  
إلى مسألة ما قد تفسر بسوء نية من قبل المعنيين، تمنى لو انه استطاع  
أن يعد الطلب باللغة الانجليزية إذا ساعدته

ديانا كثيرا وتمنى أيضا لو انه احتفظ بنسخة منه ، إذا لكف بذلك عن  
عناء التذكر للكلمات التي صاغها، والأسلوب الذي اتبعه وهل كان  
مواليا للبلاد والزعيم أم اسقط ما في داخله بين السطور .

( إنهم يقرأون ما بين السطور بدقة )

أصابته رجفة عظيمة عندما اخرج هذه الأفكار إلى فمه بكلمات مسموعة.

كان وحيدا أمام طلبه، ومتفجرا من التأرجح بين خوفه من البقاء هنا، وخوفه من عواقب طلبه الهجرة رسميا.

بعد كل ذلك وجد أن الاحتمال المشرع المعلن هو أنهم ينتظرون الوقت المناسب لاقتناصه. فالقضايا أمامهم كثيرة، والأمور العظيمة والمهمة لا تنتهي أما مسألته هو فهي ثانوية لا تحتاج للإسراع ما زالوا يعرفون بأنه لا يملك القدرة على الفرار.

في الليل كان يتقلب على السرير دون أن يغمض له جفن، يترقب أي صوت لمحرك سيارة أو لقرع جرس البيت يدور في أرجاء المنزل ينظر من خلف الستائر كلها، يراقب بالعين السحرية فلا يرى غير العتم والصمت. وإذا ما اشتد إحساسه بان هنالك حركة ما تدور كان يخرج إلى الحديقة يدور حول البيت دون أن يحسب لردة فعله إن فاجأه أحد ما . إنها تلك الحالة العصابية التي تلازمه دائما، الخوف من الترقب والانتظار والرغبة في مواجهة الأشياء حتى ينتهي إلى أي أمر وان كانت الهزيمة .

قرأ عن ذلك في إحدى المرات، انه القلق، الخوف من الخوف ذاته، هذا الخوف الداخلي الذي هو أقسى واشد من أي فعل خارجي قد يواجهه الإنسان، كما يؤمن، كان يخاف الترقب والانتظار ويتوق إلى المواجهة وان حملت معها الهزيمة .



وفي الصباح، في المصلحة، كان يغلق مكتبه نصف ساعة بعد بداية الدوام، يجلس خلالها على المقعد خلف المكتب لا يأتي أية حركة غير الترقب تتضخم أذناه، تمشى نحو الباب، تسلل من تحته تعبر إلى الممر تسجل بدقه أصوات الأقدام، يبحث عن صوت غير عادي صاخب، ثقيل، متعجل.

لقد اعتاد أصوات أقدام المراجعين للمصلحة، وأصوات أقدام الموظفين، وحتى أصوات أقدام الساعي عندما تكون بيده صينية القهوة ممتلئة و عندما تكون فارغة.

تهبط عيناه من على وجهه تتجهان نحو الباب، تراقبان المقبض الذي قد يعدم سكونه بأي تغير، حتى قبل أن يتحرك يستطيع أن يلتقط تلك اللحظة التي يمسك بها احدهم المقبض، تهتز اليد قليلا تصيبه رعشة الحركة. شئ لا تبصره العين المجردة لكنه واثق من انه يقدر على مشاهدته .

نصف ساعة، حددها من عاداتهم التي سمع عنها، لقد اعتادوا موعدا للاعتقال لا يدري كيف خلقوه. هل هي ساعة خلوة البدن إلى السكنية أم الخروج من السكنية إلى الحركة، هي لحظات لا يكون الإنسان فيها مع نفسه بل مع شئ آخر يقع بينه وبين الحياة لحظة التهيو التي لا تعدو غير ثوان ظلت تزداد حتى صارت نصف ساعة.

ثم وبعد أن تمضي تلك الدقائق، كان يلتقط نفسا عميقا، يدور من خلف المكتب، يتجه نحو الباب يفتحه ينظر إلى الساعي يناديه، يطلب فنجان قهوته بعد أن يكون الجميع قد انتهوا من قهوتهم ويرجع للعمل.

كل هذا ولا احد يدري بما يصطرع في داخله. حتى ديانا وهي الممتلئة يقينا بأنها تعرفه ككف يدها لم تكن تحسب حسابا لاختلاف

حالاته أحيانا، فقد كانت تحسبه قلقا على الوطن كلما مالت الحرب إلى جانب الأعداء، كانت تقول:

- إنها الحرب يوم لك ويوم عليك.

كان يبتسم بحزن عميق يزيدها يقينا أن لا شئ يحزن زوجها غير هذا الوطن الحزين .

وأخيرا جاء ذلك اليوم دق الباب، ودخل الساعي يحمل ظرفا صغيرا مغلقا، تناوله وطلب منه الانصراف، قلبه بيده، كان مخطوط عليه اسمه وعنوان المصلحة. لفت انتباهه خلوه من أي خاتم أو طابع بريد. فضه بيد راجفة وصار ينظر بسرعة عما بداخلة. ورقة صغيرة أمسكها وقرأ :

" الدكتور رشوان فكرى .

إشارة إلى طلبكم المؤرخ في 73/8/7 يرجى سرعة مراجعة دائرة الهجرة في وزارة الداخلية لأمر يهمكم".

ألقى الورقة جانبا ولكن غير بعيد عن عينيه. بضع كلمات فقط لا تخفى وراءها شيئا، فكر بداية، هل المقصود بهذا الاستدعاء أمر غير الذي يشغله؟ إنهم يطلبون الكثيرين الذين يغيبون دون أن يعرف أحد أين أو متى يرجعون. حتى أن أسماء الدوائر التي يطلب من الشخص مراجعتها تكون في بعض الأحيان للتمويه، فالعائدون لا يتكلمون والذاهبون بلا عودة كذلك.

تردد، ما تعني السرعة الممكنة؟ أحس حالة مريحة تخطر لذهنه المشتت كالبرق ثم تتلاشى. لماذا لا تكون موافقة على طلبه؟

وقبل أن ينتشى تماما باستنتاجه عادت حالة الكآبة تلاحقه. لابد أن الطلب قد رفض، فكر. أخيرا جاء الدور عليه أمام مشاغل الدولة الكثيرة، لا يريدون إعلامه بالرفض بكتاب حتى لا تصير سنة بين الناس يطلبون وترفض طلباتهم. إذ لابد من العنف مع الناس حتى يتعلموا الكف عن الطلبات الكثيرة. البعض يطلبون الهجرة، الآخرون سيطلبون الإعفاء من الجيش. أو من الضرائب. أو من الخروج في مظاهرات الدولة والمشاركة في الاحتفالات أو تعليق الياфطات على نوافذ البيوت التي تعلن بأنهم يعيشون في وطن حر وأنهم شعب سعيد.

حسم أمره: إذا هي علقه تأنيب لن تزيد عن ذلك وإلا لما ترددوا في سحبه من البيت أو المصلحة في الليل أو النهار أمام أعين الخلق جميعا.

وقف، وقرر مراجعة المسؤول لطلب مغادرة على الفور لكنه تراجع.

- لم التعجل يستحسن أن أتريث قليلا؟

رجع إلى المقعد، سقط عليه، دارت به الدنيا، فكر:

التأخر لا يجوز أيضا فلقد حددها الكتاب صراحة:

- بالسرعة الممكنة.

عاد ووقف. كانت الأفكار تصطخب في رأسه. عندما خرج من المكتب وقطع الممر المؤدي إلى غرفة المدير، طرق الباب ودخل، كان المكتب خاليا إلا من رائحة تبغ طازجة، المقعد الوثير مستدير بإهمال

والملفات موزعه على الطاولة. فكر بالرجوع لكنه توقف عندما سمع طشيش ماء الحمام، فتح باب جانبي خرج المدير منه وهو يسحب سوستة البنطال ويعيد تهذيب وضعه، قال عندما رأي رشوان واقفا عند الباب.

- السكر. تابع: وقد ابتسم فم عجوز محاط بشارين أبيضين.

أفكر بنقل مكتبي، تجدني هناك أكثر مما تجدني هنا .

أشار بيده، أدخل. جلس على المقعد باسترخاء صار يلتقط أنفاسا هادئة، تركه رشوان يواصلها عندما تحرك ببطء إلى حيث أشار عليه المدير لم يرغب بحرمانه متعته بالراحة هذه.

جلس، وبعد لحظات قصيرة هتف:

- أريد أذنا بالخروج – مد الرسالة بيده – سينظرون بطلبي.

- عظيم.

تهلل وجه المدير . هذه بادرة طيبة.

وقف رشوان مترددا ثم عاد يسأل:

- ما رأيك؟

وكان المدير فهم ما يقصده هز رأسه:

- تفاعل . ليس أمامك شيئا آخر تفعله غير ذلك.

- هذا رأيك؟

زم المدير شفته العليا.

- ستذهب.

قال وكأنه ينهى الحديث ثم وقف، ربت على كتفه.

- تشجع يا رجل.

هز رشوان رأسه وقد أخفته كلمات المدير ونظراته.

- سأذهب، أجل سأذهب .

## (2)

في وزارة الداخلية، قدم الكتاب الذي يحمله لموظف الاستعلامات الذي طلب منه إثبات شخصيته، مد له جواز السفر، قلبه الرجل بيده، ثم دون في سجل أمامه الاسم، العمر، ساعة الدخول ألقى الجواز جانبا فوق كومة من وثائق إثبات الشخصية لأشخاص عبروا من هنا، وأشار بيده عليه أن يذهب سأل:

- إلى أين ؟

رد الموظف.

- الطابق الثالث.

أشار رشوان إلى جواز السفر. قال الموظف وكأنه يلقي عن ظهره حملا:

- تأخذه عند الخروج .

تركه ومشى باتجاه عدد من المصاعد، اكتظت على بواباتها اعداد المراجعين. انتظر كانت بعض المصاعد تنطلق بسرعة دون توقف على الرغم من أن الأزرار مضاءة للصعود وللنزول .

حركة دوؤوبة. المراجعين يزدادون كل لحظة دون أن تلوح بادرة لخروجهم من هذا الاكتظاظ.

صار يراقب الناس وحركتهم. وجوه كثيرة تحمل ملامح تائهة أو مطموسة، الخوف يلوح عليها، ثم يختفي ليحل مكانه الترقب والشك. قرر أن هذا يدفع فيه خوفا غريبا نظر حوله أبصر درجا عريضا، تريث قليلا ثم حزم أمره على أن يصعد، سيتحمل مشقة صعود الأدوار الثلاثة قال في همس:

- سيكون بمقدوري تغيير هذا الجو بسرعة.

لم يطل التفكير، انسحب من بين الجمع واتجه نحو الدرج وبدأ بالصعود. تجاوز الدورة الأولى أحس ثقة عظيمة بنفسه لقد حقق انجازا

مهما. تجاوز الدورين الأول والثاني بلحظات استطاع خلالها أن يفر من أفكاره وخوفه قليلا. عند الدور الثالث أخذ يلتقط أنفاسه ويعيد ترتيب هندامه، كان قد حضر ببذاته وربطة عنقه، ظن أن ذلك سيعطي للآخرين انطباعا طيبا عنه.

دفع بابا يؤدي إلى الداخل، ارتد بوجهه. نظر حوله لا يوجد غيره والدرج الصاعد إلى الأعلى. استدار حول نفسه، وقف قرب الدرايزين نظر إلى الأسفل في البهو الهاوي إلى الأرض. تأكد انه لم يخطئ بالعد.

- انه الدور الثالث.

عاد إلى الباب ثانية، دفعه فاهتز ولكن دون أن يفتح، كرر المحاولة دون جدوى، اعتزم أن يبتعد ليجت من نفذ جديد عندما أبصر ظلا يأتي مسرعا من خلف زجاج البوابة. اعتقد بأن الباب قد أغلق خطأ وان القادم الآن سيعتذر له. عاد نحو الباب وقبل أن يصل إليه سحب مقبض ثقيل واندفع الباب

إلى الداخل بسرعة البرق فتسجد له الظل رجلا ضخما كأنه العملاق الهارب من القمم.

وهكذا وبقدرة عجيبة تحول الظل إلى رجل بشارين عريضين وعضلات مفتولة علق بحزامه مسدس كان أول ما وقعت عليه عينا " رشوان".

في تلك اللحظة أخذت تحوم في نفس "رشوان" حالة ارتياب دفعته للتساؤل عن سبب وجوده وحيدا هنا، لا أحد من المراجعين حدثته نفسه بأن يصعد السلالم مثلما فعل هو. ترك الجميع ينتظرون أمام المصاعد وانقاد لأمر روحه المتعجلة دائما كل شيء.

- ألم يكن الانتظار أفضل؟

وقبل أن يجيب عن تساؤله، أسقطت كف الرجل الضخم على كتفه، وشدته بقوة حتى أوشكت ياقة القميص الأبيض الصلبة أن تذبح عنقه.

- ماذا تفعل هنا؟

جاءه السؤال كأنه رصاصات خرجت من المسدس الذي يحمله الرجل.

عندما تأكد " رشوان " من أنه أخطأ المكان، تلعثم وقد تبعثرت أناقته، مد يده بسرعة إلى جيبه وأخذ يبحث عن تلك الورقة التي يفترض أنها تحمل سبب نجاته. كان الوقت يمضي مسرعاً، ويده تتحرك بسرعة في جيوبه بارتجاف وعندما تحسستها أصابعه انهالت عليه حالة خلاص مقدسة، أخرجها على الفور ومدّها للرجل.

سال الرجل بغضب.

- ما هذا ؟

- طلبوا مني أن أراجع هنا، في الطابق الثالث. قال متلعثماً.

كان الرجل العملاق يشتعل بانفعال مضطرب لا تبدو له نهاية أو انطفاء، صرخ:

- الطابق الثالث فوق .



حاول " رشوان " أن يتكلم، لكن الرجل لم يعطه فرصة عندما دفعه بعيداً، الأمر الذي ساعده لتجاوز عدد إضافي من السلالم دون مشقة.

عندما أيقن " رشوان " بأن هذا المكان لا يعدو أن يكون سوى الدور الأول بالعد الحضاري للارتقاء.

واصل صعوده وهو يحاول أن يعود ثانية لخوفه الأول فقط وان يبعد عنه الخوف الذي ضاعفه له هذا الرجل القبيح.

في المكان المحدد. كان الباب مشرعا والناس تدخله بصمت، كان ما يزال يلتقط أنفاسه المضطربة المتعبة.

أمامه تماما وضعت يافطة أخرى كتب عليها استعلامات، تقدم منها سلم على الرجل القابع خلف الزجاج، لم يجبه مد يده يطلب الورقة، ناوله إياها، فتحها، نظر فيها.

- أنت رشوان فكرى؟

- نعم.

- أين بطاقتك؟

- تركتها على الباب عند الاستعلامات تحت في الأسفل.

- ألا يوجد معك هوية أخرى؟

فكر قليلا، تم تحسس محفظته.

- نعم، رخصة القيادة.

مد الرجل يده متعجلا تناولها.

أخرج رشوان الحافظة، لاحت له صورة دايانا والصغار مقصوصة على شكل قبل تأملهم لبرهة من الوقت، ثم سحب الرخصة وناولها للرجل الذي قلبها بين يديه، نظر إلى الصورة والى " رشوان "

متفحصاً أكثر من مرة، ثم انحنى يكتب التفاصيل الاسم ، العمر ، ساعة الوصول.

ألقى الورقة والهوية جانبا فوق أكوام من الأوراق والهويات، سحب ورقة جديدة مكتوب عليها بحروف فوضوية بيانات فارغة عبأها الرجل . كتب الاسم والرقم. ناولها لرشوان الذي نظر مستفسرا.

- غرفة رقم 7 .

- قال الرجل وهو يشير نحو دهليز بدأ وكأنه يفضى إلى خارج  
البناية.  
- من هنا ؟

سأل رشوان باستهجان.

رد الرجل وكأنه يلقيه بعيدا:

- أجل.

ما إن دلف ذلك الدهليز حتى تحقق ظنه فلقد صار معلقا خارج  
البناية فوق جسر من الخشب تم بناؤه على استعجال، نظر باندهاش كان  
يهتز تحت أقدام العابرين متراقصا وهو يخرج صوت أزيز متواصل.  
نظر نحو الأسفل كانت الأرض بعيدة.

توقف برهة إلى أن أبصر أحدهم يعبر دون اكتراث، التصق به وعبر معه مسرعا دون أن يحاول النظر تحت قدميه ولو لمرة واحدة.

مرة أخرى أخذ الخوف يتسلل لرشوان من جديد، فكما ابتعد عن المبنى الذي دخل من بوابته أحس بأنه يخطو نحو عالم آخر غريب.

الوجوه حوله مصفرة، قلقه، غارقة بالتيه، والأجساد تتحرك بآلية وبلادة. للحظة فكر أن يقفز من هذا العلو، لكنه آمن أن الله عندما دفعة ليرى صورة دايانا والأولاد أراد أن يعطيه دافعا للاحتمال والصبر .

استعاذ بالله من الشيطان الرجيم الذي وسوس له بذلك ولو للحظة.

انتهى الجسر الخشبي الراقص، دخل بوابة حفرت بحائط البناية المجاورة دون تخطيط ظلت حوافها مشظاة بإهمال. بعد هذه النقطة تحول العالم كله إلى عالم جديد ، بدا لرشوان أن الإضاءة هنا أضحت خافته، أحاط به سكون عجيب عندما خطا خطواته الأولى إلى الداخل.

كان الصمت متربعا على الصالة والمقاعد الخشبية الطويلة والأبواب المغلقة والوجوه.

قرر أن يستجمع حواسه، بحث في رأسه عن السكون فلم يجد غير الخوف.

عزا كل ذلك إلى المكان، بحث عن يسأله فلم يجد، نظر صوب رجل يجلس على مقعد ينظر ساهما، أشار إليه الرجل بحركة خفية ان يجلس. جلس ورفع الورقة بيده حتى يبصرها أي عابر هنا ليدله عما يجب ان يفعله. بعد ساعة من الانتظار وأكثر استكان وصار يفكر بالكون وبالقدر وكيف ان الاشياء تمر بالانسان دون ان تستشير.

انقضت الساعة الثانية ببطء، ثم انقضت الثالثة وهو لا يفعل شيئاً غير الانتظار والتلويح بالورقة التي صارت مبتلة بين اصابعه.

بعد الساعة الخامسة استبد به عطش شديد، واحس رغبة حارقة بالتبول . فكر ان هذه اعراض السكر، تذكر مديره

ورغبته في الإقامة بالحمام. أحس رعباً حقيقياً لم يكسر إلا بسماع اسمه يأتي من فراغ بعيد:-

- رشوان فكرى.

وقف متفاجئاً، اقترب منه الرجل صاحب الصوت كان طويلاً بشاربين دقيقين رفيعين وشعر مهندم، ملامحه قاسية تخفى وراءها فهما خاصاً للقادمين هنا.

- دكتور رشوان ؟ سأل .

- نعم. انا. أجاوب وهو يمد بيده الورقة.

تناولها الرجل وبخفه ألقاها بعيداً ثم مد يده بورقة جديدة تشبه تلك التي كانت مع رشوان لكنها تحمل تاريخاً جديداً.

- غدا يا دكتور.

هز رشوان رأسه :

- غدا؟

- وصباحا. أجاب الرجل مؤكدا وهو يرجع من حيث أتى.

حاول رشوان ان يسير مبتعدا عن المكان كانت قدماه ثقيلتين  
مشدودتين بحبال الى الارض.

\* \* \*

(3)

تسعة ايام كاملة قضاها رشوان فكرى ينتظر على مقعد واحد انتقاه  
في اول يوم جاء فيه الى هنا قرب رجل أشار اليه ان يجلس بعيدا عن  
الآخرين في زاوية الصالة الفسيحة منذ الصباح وحتى انتصار النهار.

وفي اليوم العاشر في الساعة الواحدة ظهرا جاءه ذات الرجل الذي  
يأتيه كل يوم وقد بدا عليه التهجم والغضب، أشار من بعيد:

- رشوان. تعال

لم تعن رشوان كثيرا مسألة إسقاط الالقاب، لكنه شك بأن تحوله  
من الدكتور رشوان الى رشوان مجرد أمر يثير الريبة.

وقف رشوان اليانس من ان يسمع اسمه قبل نهاية الدوام ولحق  
بالرجل الذي استدار ودخل الى الغرفة التي تحمل الرقم (7). دخل  
وراءه. ما إن صار خلف الباب حتى هالة ما رأى، أبواب كثيرة  
كلها مغلقة وامامها مقاعد واناس ينتظرون. احتار من أين جاء كل  
هؤلاء.

فتح الرجل أحد الابواب واختفى. بقى رشوان جامدا مكانه لا يأتي بحركة، ظن انه انتظر دهرا او دهورا قبل ان يطل الرجل من خلف الباب ويصرخ به ان يسرع .

مش بخطا بطيئة يائسة، كان يقاوم إحساسا جديدا صار يولد تحت جلده كأنه نوع من اللامبالاة أو الاستسلام، عالج المسألة سريعا في رأسه، عشرة أيام طويلة من الانتظار، سنة أو أكثر من القلق والخوف، ثم عمر من الجد والمثابرة والدراسة حتى استطاع ان يصبح مهندسا عظيما، بعد هذا كله ها هو يتحرك بصورة لا إرادية لا يعرف كيف. كأنه في حلم أو غيبوبة، حتى زوجته بدأت تشعر بذلك قالت له:

- رشوان لست وحدك ابن هذا الوطن لتحمل كل هذا الهم. إنها الحرب فيها الرابح وفيها الخاسر.

ود رشوان لو أنها تخفف حقا مما يعانيه. فهو لم يعد يدري أين صارت الحرب ومن الذي انتصر أو هزم.

مشى خلف الرجل. دفع الباب كان خلفه درج يصعد الى الاعلى واخر يفضي الى أسفل البناية، نظر، فإذا بالرجل قد صعد درجات عديدة، شد رشوان من عزيمة ولحق به مسرعا.

لم يدر كم قطع من الادوار. دخل بابا جديدا، لحق بالرجل فواجهته غرف جديدة، أخرى. أمام واحدة منها أشار عليه ان ينتظره لحظة قصيرة من الوقت جاءه الامر، أدخل.

غرفة محشوة بمقاعد الجلد الاسود، يتوسطها مكتب من الحديد  
علاه الصدا، خلفه جلس رجل سمين قصير اصلع الرأس، بدا لرشوان  
مستديرا بحجم قاعدة الكرسي الذي يجلس عليه. عندما وقف للسلام تأكد  
لرشوان كم هو قصير وضئيل.

رحب به ورجاه ان يجلس، قبل ان يبدأ بالحديث.  
سأل : نشرب قهوة؟

ودون ان يسمع إجابة، انحنى تحت المكتب فلم يعد يظهر منه شيء  
غير مؤخرة عريضة. خرج يحمل إبريقا وكأسين من البلاستيك قال  
وهو يبتسم:

- الساعة لا ينفعون في شيء.

سكب كمية حسب رشوان أنها قليلة، لكن عندما تناولها وبدأ يشرب  
منها أحس بأنها اكثر مما يرغب.

- اذا ترغب بالهجرة دكتور رشوان؟

تكلم الرجل القصير بعد ان رسم على وجهه ملامح جديدة تصرح  
بأن كل ما مضى هو نوع من اللهو وان الامر الجاد الحقيقي قد ابتداء  
الآن.

رغم لذلك فلم يكن رشوان يحتاج كثير وقت حتى يستوعب هذا  
التغير في ملامح ولهجة الرجل، فمنذ لحظات فقط استطاع ان يرصد  
هذا التقلب السريع والسهل في الوجوه، سواء من الرجل الذي قاده الى  
هنا، أم من الساعة الذين يتحركون طورا بابتسامة وتارة بتكشير، احيانا  
مثل عبيد مطيعة ضعيفة وديعة وفي أحيان أخرى مثل أسياذ متجبرين.

ازرد جرعة القهوة التي انسابت في حلقة مرة.

كرر السؤال في صمت أكثر من مرة، قسمه، وجد فيها أكثر من أمر مهم، الرغبة، الهجرة، عودة صفة الدكتور ثانية. تفكر بالاجابة، ابعده مسألة اللقب لم يعد يعول عليها كثيرا فهي لازمة متحولة، ( كيف يكون ذلك؟ )

اجل مناقشة الامر الجاد الحقيقي لزمان ومكان آخرين، أما كلمة الهجرة فلقد استوقفته بشدة. الهجرة تعنى. الخروج بلا عودة، هذا ما يصرح به الرجل العجيب، وهذا ما يود ان يأخذ به اعترافا.

- ها دكتور؟

قطع سيل أفكاره السريع .

والرغبة، كيف تفسر؟ همس رشوان. أدارها في رأسه ( أنا لا أرغب، الظرف العائلي هو الذي يجبرني على هذا)، أعاد تكرار الجملة بصوت خافت وكأنه يؤكد لنفسه أنها المخرج.

- لا أسمع ما تقول، رجاء ارفع صوتك.

قال الرجل بنبرة قاسية.

- انا لا ارغب. قال (رشوان) بصوت مرتفع بعض الشيء.

ان وضع اسرتي يفرض على ذلك – بعد لحظة صمت أكمل – كما اني لا ارغب بالهجرة سيدي أريد السفر لفترة مؤقتة .



أحس رشوان أنه قد أصاب نقطة لصالحه فهو لم يعترف برغبته في الهجرة، كما انه لم يترك لسؤال الرجل ان يغيب دون ان يعلق عليه ليبدو وكأنه لا يعرف ما يريد. فكر

بانه لا بأس بما أنجز حتى اللحظة فلربما كانت هناك أجهزة تسجيل ترصد كل كلمة يقولها.

- دكتور رشوان، السفر، وترك الوطن في الوقت الذي يحتاج فيه لكل فرد ليس هجرة فحسب، انه فرار وهروب.

ثم وكأنه يستجمع كلمات كثيرة تصطبغ في داخله أكمل:-

انها خيانة، لكن يعطيها المتعلمون أمثالك تسميات مهندمة مثلهم.

حاول "رشوان" ان يتكلم وان يدافع عن نفسه لكنه لم يجد الفرصة لاستيقاف الكلمات واعادة قراءتها ثانية كما هو معتاد فالوقت يتلاشى كسراب أمام سرعة الرجل الذي أكمل:-

انتم أبناء الامبريالية، تدرسون على نفقة الحكومة، ثم تعتادون أوروبا ونساءها. لم تقنعك امرأة من وطنك فنساء الوطن للرعاع. بالتأكيد انت تحسب نفسك اعظم مما ينتجه هذا الوطن، واحساسك بالنقص امام المستعمر الاجنبي يجعلك ضعيفا أمام مغرياته وانت تود التقرب منه بأي ثمن.

أسقط الرجل كلماته مثل رصاص مدفع سريع، اختلطت بلعابه المتطاير والاحمرار الذي برز من جحوظ عينيه، وصوته القاسي.

اشك انك قادر على مناقشة زوجتك بأي أمر. أشك أنك قادر على محاسبتها على أي فعل تقوم به. صحيح أم أني أبالغ

يا دكتور؟ ما تفعله النساء الاجنبيات لا يخفي على أحد. لا قومية لا دين، لا شرف، وانت وأمثالك تكتفون بهز الرأس والقبول. لقد اكتفت هنا وتريد العودة الى بلدها وستأخذك معها بالطبع أيها الرجل العظيم.

الوطن يعاني من جراح ثقيلة وأنتم لا هم لكم الا أنفسكم، اللون الابيض الاوروبي سحل عقولكم لا شيء سوى الجسد الاجنبي أمام الوطن ، فقط.

كانت المهانة قد تقصمت رشوان، وغطت حياته كلها، حاول اغلاق أذنيه عن سماع الكلمات القاسية التي تمس شرفه وديانه بالذات، أخذت الغرفة تدور به ولم يعد أمامه من شيء غير الغياب.

الكلمات حروف منثورة ألقيت كيفما اتفق. سقطت على الارض وفوق مقاعد الجلد وفي سلة المهملات، وعلى رأس رشوان الذي أخذ يهبط شيئاً فشيئاً في مقعدة بقوة ضغطها عليها حتى تلاشى فيه.

لم يردكم من الوقت انقضى والرجل ينهال بكلماته عليه، لكنه كان طويلاً كأنه ابتداءً منذ فجر الخليقة ولم ينته. غامت عيناه ودلو أنه يبكي، او ان يصرخ حتى يخرج ما يثور بداخله، لكن أمرا ما في داخله كان يدفعه للسكينة.

الى ان سمع ما بين سيل الكلمات المنهمرة عليه أمرا بأن يغرب  
عن المكان. شك بان ما يسمعه حقيقة، حتى أعاد الرجل ذلك عليه ثانية  
خاتما بكلمة انصرف.

وقف رشوان المهان، ومشى خارجا يجر جر قدميه الثقيلتين ورأسه  
المنكسر الحزين. خرج من الغرفة وعلى اول مقعد صادفه اسقط بدنه  
المكدود.

ما الذي تخبئه الساعات القادمة؟ سيؤخذ من هنا، يسحب الى  
الاماكن البعيدة، لن يسمع له خبر، انه متأكد من ان الرجل اتهمه  
بالخيانة، وتكلم عن الامبريالية والاستعمار وكان رشوان أحد قاداتهم.  
هذا التأخر بالرد على كتابه كان للتحقيق عنه وعن عائلته، لقد تكلم هذا  
الرجل القصير كثيرا عن زوجته، عرفوا كل ما يخفى، رغم ثقته بأنه لم  
يسجل في تاريخ حياته الطويل لحظة معارضة واحدة، ولا يذكر انه قد  
شارك بمظاهره منذ ايام الدراسة حتى التخرج والعمل.

- فكر رشوان- بانه يكره الدم كثيرا وانه يسبب له حالة إغماء عندما  
يراه، كما انه يكره الاماكن الضيقة وينتابه إحساس بانقطاع النفس كلما  
تذكر مكانا مغلقا أو ضيقا.

ما الذي ستفعله ديانا بعده.

طفرت من عينه دمعة ثقيلة، تذكر البيت والحركة وضحكات  
أطفاله البريئة، كاد قلبه ان ينفطر.

هدأ لتذكره ان دايانا ما تزال تحتفظ بجنسيتها الانجليزية وانهم لن يفعلوا شيئاً ضدها، لكنه عاد وفكر بأساليب الخديعة وتدبير المكائد التي قد تبدو قضاء وقدرًا .

استعاد بضع كلمات مما قاله الرجل:

- يجب ان تعرف بأنا لا نريد ان نضعك أمام حكم نحن على ثقة منه، وهو انك خائن، كما اني لا ادري كيف لم تتقدم لأداء واجبك تجاه المعركة ولم نحاسبك؟

ود " رشوان " وهو يتذكر هذه الكلمات ان يرجع الى الرجل القصير، ينحني امامه، يقبل يده ويعتذر ثم يتوسل اله ان يعيد له الطلب وان ينسى الامر كله.

أحس بدنه يسطك برجفة متكررة، نقلها الى المقعد والى رجل عجوز ضئيل كان جالسا أقصى الطرف البعيد. لمحہ ينظر اليه، لم يكن رشوان معنيا باخفاء خوفه الذي القى برجولته وخجله بعيدا وتربع مكانهما بثقل هائل.

\* \* \*

في الساعة الثانية، ومثل كل يوم سمع اسمه.

وقف ليأخذ الورقة، جواز سفره للعودة في اليوم التالي كالعادة.  
هذه الورقة التي أضحت جزءا من يومه وحياته في الايام الاخيرة.

لكنه فوجئ بان الرجل الذي قاده الى هنا اول مرة قد جاء دون ان  
يحمل بيده شيئا. ابتسم عندما وصل قرب رشوان. قال بهدوء:-

- دكتور رشوان تستطيع ان تسافر، لا شئ يمنعك من ذلك .

\* \* \*

## (4)

عندما عربت به الحافلة منذ سنين الطريق رأى تلك البحيرة الصغيرة المحاطة بحديقة خضراء واسعة، فيها عدد من المقاعد المستظلة أشجارها العالية، وأمان لألعاب الاطفال المهجورة في تلك الساعة من الليل. تذكر بانها كانت خالية الا من رجل وامرأة التصقا ببعضهما على مقعد منزو، كان يراها بحدسه الشرقي العالي بعد ان افتقد هذا المشهد منذ ان اتم دراسته في إحدى ضواحي لندن ورجع الى الوطن.

اما الآن فالحديقة ما تزال كما هي غير ان اصفرار الخريف حط فيها كآبة وسكون مفرعين، لم يكن مضطرا للمجئ الى هنا في مثل الوقت غير ان الحوار الذي دار بينه وبين دايانا ولم يقدر على مواصلته، دفعه لأن يرتدي سترة بقبة عالية كانت معلقة على المشجب عند المدخل ويخرج.

لقد أبلغته دايانا عندما عاد الى البيت في المساء بأنها لم تعد قادرة على العيش اكثر في السويد.

كانت تسكب له صحن الشوربة التي يحبها وقد بدا عليها منذ عاد من العمل ان هناك أمورا كثيرة تريد ان تناقشها معه، تمنى لو انه يتم

تأجيل ذلك الى وقت آخر فهو لم يتمكن من حسم قراره تجاه مسألة بهذه الاهمية دون دراسة عميلة وتأمل بجميع الاحتمالات. قالت دايانا:

- ان الاولاد يفتقدون الهوية، فرغم حرصها معه على إبقائهم تحت ظل الاسرة الا انها فشلا بذلك تماما أقرت هي انها فشلت وسألت باستنكار، لا أدري ان كنت تعترف مثلي بذلك؟ فاطمة لا تعرف العربية ولا الانجليزية، انها سويدية بكل شئ وانا أكره هذه الجنسية، كما ان اصحابها جميعهم من هنا. الاولاد لا تعنيهم بريطانيا ولا يعنيههم شئ من العرب.

كما انهم لا يحبون هذه البلاد. وانت أراك تبحث في صحف عربية قديمة تسقط بين يديك مرة أو مرتين في العام عن أي شئ يجعلك تعيد التفكير بأمر بالبقاء هنا.

صرت أتساءل لو عدنا، لو فكرنا بالعودة هل سيرضى الاولاد؟

رغم ان دايانا تعرف كيف يفكر وانه لا يمكن ان يعطي اجابة لاية مسألة وان كانت ملحة عاجلة قبل ان يتلقاها بهدوء ويدخلها في رأسه ثم يقلبها، يحللها، يعيدها الى أصلها الاول، ثم يعيد تركيبها من جديد ويبدأ باعداد الاجابة لكل جزء بذاته. رغم انها تعرف ذلك عنه الا انها ألفت كل ما فيها عليه. لم تكن معنية باجابة محددة تلك اللحظة، كل ما كانت توده هو ان تلقى بهذا الحمل الذي ألقى على كتفها على أي كتفين يمكن ان تثق بانهما مستعدان لمساعدتها في هذا العمل.

كانت كلماتها خليط دقيق من الانجليزية لغتها التي يعرفها رشوان بعمق واللغة العربية في استخدام التعابير المجازية التي تعلمتها من سنين معاشرته أو السويدية اذا ارادت ان تتهكم او تسخر.

حاول ان يستجمع بعض ما يسمع لكنه وصل مع سرعة كلمات دايانا الى حالة اشباع توقف بعدها ولم يعد يعي غير الاصوات.

صوت دايانا العذب الجميل صار خشنا قاسيا وكان اجمل ما فيها، وها هي الغربية تغيره. عشر سنين أو اكثر هنا ومثلها في الوطن؟ عمر طويل تركت فيه كل ما تحب، بلادها، أهلها، ذكريات طفولتها ورحلت معه حيث رحل. ما الذي تريد منه أو من الحياة؟ تساءل بصوت عال قليلا:-

- ماذا أريد من الحياة حقا؟

كان السؤال قاسيا، جاءه من عالم آخر بعيد، لم يكن معنيا ولا لمرة واحدة بالوقوف على تلك الحالات الوجدانية، أو الوجودية التي يمكن ان تستوقف مسيرة حياته، جاءه كلطمة قاسية. انهالت على وجهه ودون تنبيه ألقاه في التيه.

حياته عادية أو هي أفضل بكثير من ذلك. الكثير من المهندسين زملائه يتمنون ما حققه حتى الآن. مثل هذه المؤسسة التي يعمل بها وفرت له كل ما يتمنى، السكن الجميل المريح، مدارس للاولاد، الراتب المجزى، الاحساس بالامان، كل ما يريده المرء حتى انها أحاطته بالاصدقاء. خلقت له صحبه وبرامج حافلة، رحلات حفلات واجازات طويلة بديعة.



لكن كل ذلك لم يشبع في داينا رغبتها في ان تكون هي، وان تعيش حياتها. منذ ايام بدأت تتكلم عن العمر وجدواه وبدأت مع خصلات الشيب الصغيرة التي غزت رأسها تعاني من لحظات اكتئاب حقيقية.

هبت عليه نسيمات باردة جافة دفعته لان يتلفع بالسترة التي يرتديها. فكر بأن المشى سيكون اكثر جدوى وسيمده ببعض الدفاء. توقف وصار يجول في الممرات المرصوفة. كانت البحيرة صافية تحت وقع الاضواء المنعكسة على صفحاتها.

أخذ يستعيد ذكريات حياته القديمة الموشكة على التلاشى خلف تجاعيد الذاكرة، قفز عائدا الى طفولته البعيدة، احس رغم انه لم يتجاوز الخمسين بان العمر الذي يبحث عنه بعيد، لا تلوح منه سوى علامات بالكاد تتضح ولا تلبث تختفي. طفولته، تهاويم وخيالات تراوح فوق رأسه والبحيرة. المدرسة، الاقارب، البيت، امه التي ماتت وهو بعيد عنها في لندن ثم أبوه الذي لم يبارح القرية فظل بعيدا عن رشوان حتى خلال سنين وجوده في الوطن، كان يتذكره في الاعياد يذهب لزيارته ويقبل يده ويتناول معه طعام الغداء، ثم مات بعد ان وصل الى استوكهولم بشهور فلم يجرؤ على التفكير بالعودة لإلقاء نظرة اخيرة عليه. كان يحب أباه كثيرا ويوده دائما، يرجوه ان يترك القرية ويأتي ليعيش معه لكن الوالد كان يرفض. ولطالما تحدث لرشوان عن البيت والارض والعشيرة.

العشيرة !! هذا ما يفتقده هنا، الصلات القوية الدافئة التي تربطه بالآخرين. لقد حسم المسألة هذه في مرحلة مبكرة من العمر، عندما اخذ يعتاد حياة الغرب المريحة. لقد آمن بان كل ما يحتاجه المرء من الانتماء لجماعة او عشيرة او حتى وطن يمكن ان يتوفر بالمال وبقدرة

الانسان على الانتاج وتأمين الاكتفاء، وحتى اللحظة لم تتزحزح قناعته هذه .

لكن حالة الفراغ القبيحة التي احسها الليلة أو حتى منذ ايام دفعت الى رأسه سيل الافكار العارم هذا الذي لم يعتده من قبل. الماضي، العائلة، ثم سؤاله الجديد هذا عن الحياة وجدواها وعندما لم يجد جوابا، ولم يعمل الذهن بالتفكير كبرت في رأسه حتى جاورته حالة خوف كان قد عاشها قديما فانتقض.

وقف قليلا، اخذ يتذكر هذا الحساب الصعب الذي أوشك ان ينساه أحس ببرودة تنساب من رأسه الى دقمية، اوشك كل شئ في حياته ان ينقلب الى صخب مفرع بعد الهدوء الطويل.

طرد الحالة من رأسه، فكر بأمور أخرى، استطاع ان يرجع الى حالته الساكنة بعض الشئ فكر بدايانا وببريطانيا. كانت أياما جميلة، لكن لماذا فجرت دايانا كل ذلك اليوم مرة واحدة وأشعرته بانه هو السبب وراء ذلك فلقد تلهى بالعمل عنها وعن الاولاد. حتى انه لم يعد يشعر بها . وفجأة اقر رشوان ان ما قالته الليلة لم يكن مطلقا بداية، انه مرحلة جاءت بعد تراكم لم يكن ليلحظه أبدا، لام نفسه:-

- كان من الواجب ان أعرف ذلك .

تحت شجرة عالية وقف. اسند ظهره لجدعها العريض :

لابد ان اعتذر.

نظر الى السماء، غيم أسود يأتي من بعيد:-

- سأعتذر لدايانا.

تلفت حوله، احس للمرة الاولى في حياته ان المكان يضج بهواء  
نقي، سحب نفسا عميقا رغم برودته الا انه أحس به يتسلل الى اعماقه  
بدفء .

\* \* \*

# الفصل الثاني

## الرجل الاول

(1)

في الوقت الذي غادر فيه هاني الجابر مكتبه كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، اغلق المكتب بعد ان أطفأ السيجارة الاخيرة من العلبة الثانية ذلك اليوم، نظر حوله كانت الاشياء تحمل فوضى عراك. المقاعد متحركة عن أوضاعها التي كانت عليها في الصباح. المكتب أوراقه مبعثرة ومنافض السجائر ممتلئة حتى حافتها، بعض الملفات والكتب سحبت من موضعها عن الرفوف المعلقة على الحائط وظلت ملقاة بعيدا على الطاولة، أو على رف بعيد حتى بعضها ترك مفتوحا على صفحة ما ولم يعد اغلاقه، حتى لوحة - الغرانيكا- التي أهداه إياها صديقه الفنان والتي قام بتعليقها بنفسه عندما أسس هاني المكتب، انحرفت عن مكانها نتيجة حركة غير واعية من أحد الضيوف الذين ملأوا المكتب هذا اليوم، ولم يتم باعادتها الى وضعها الصحيح.

من ثلاث سنوات تقريبا فكر " هاني " بان يمارس عملا آخر إضافة لتفرغه السياسي، فمع تغير الأوضاع الآن وهبوط حدة المواجهة مع الحكومة اخذت مهامه تقل، أو أنه كما وصفها ذات مرة لصديقة الفنان - صارت منظمة. وأمام استغراب صديقه أوضح بأنه لم يعد يحتاج للموارد والتورية والاختفاء، تغيير مواعيد الاجتماعات أكثر من مرة، أو وسيلة النقل إلى المكان المحدد، والتعجيل بالحوار، والشك بالمحيطين. الآن صار الاجتماع موعده الرسمي الدقيق مثل موعد الحفل الأخير

في السينما. يخرج من المنزل يتجه مباشرة للاجتماع يناقش البيان ويعده هو الرفاق. يسلمه للآخرين المسؤولين عن طباعته، ثم ينصرف. يتجه الى مكتب أو بيت صديق قريب يشرب فنجان قهوة معه، يتحادثان بأخر الاخبار، ثم يتركه يعرج على حانة القط الاسود يشرب كأس وسكى واحدا او زجاجتي بيرة، ثم يرجع الى البيت.

ولأن الوقت طويل، فلقد أخرج شهادة القانون التي حصل عليها منذ سنين من قبو النسيان الذي عاشت فيه طويلا. من انقطاعه عن العمل وتفرغه للعمل الحزبي، ثم الى اعتقاله وسجنه الذي استمر عشر سنين. نفش عنها الغبار وأعاد تجديد الرخصة، التي سحبت منه، دون عناء يذكر، ثم صار والاصدقاء يبحثون عن مكان يمارس فيه عمله كمستشار قانوني، حتى اهدتوا الى مكتب يقع في مكان مميز من المدينة وفي بناية أقامها حديثا أحد الاثرياء الذي استغل الحيز الاكبر من أدوارها لاعمال مجموعته التجارية المتعددة الفروع والاختصاصات. وكنوع من الاستثمار الاضافي قام بتأجير الدورين الاخيرين من البناية بعد ان جعلهما مساحات صغيرة تحوى مكاتب أشبه بالأستوديو.

وعندما اتصل به هاني وسأله عن إمكانية استئجار إحدى هذه الشقق رحب به بشدة، وأكد انه يعرفه مناضلا صلبا لم يكل طوال السنين الصعبة التي اجتازها الوطن كما أبدى حماسه لكتابات هاني الاسبوعية في الصحف وخاصة تلك التي تعرض وثائق سياسية مهمة كانت مخفية لعقود دون ان يتعرض لها احد على الرغم من أهميتها. كما صرح بأنه يعتز بان يكون

هاني الجابر أحد سكان بنايته قال:- ان هذا سيعطى قيمة إضافية للسكن هنا.

لكل ذلك فقد وافق على قبول ايجار شهري من هاني وإعفائه من بدل الإخلاء.

الصديق الفنان أهداه صورة لوحة بيكاسو – غرانيكا. علقها في الواجهة وتحتها علق صورة بالابيض والاسود جمعته مع هاني وآخرين. كانوا قد اصطفوا امام الكاميرا مبتسمين، شعورهم الطويلة والبدلات التي يرتدونها تشير الى ان الصورة قد اخذت في البداية السبعينات أيام الدراسة في الجامعة.

يذكر أنهما في تلك الليلة وبعد ان انتهيا من تنظيم المكتب، جلسا ليستريحا قليلا أو ليأخذ قسطا من الراحة. اعد هاني فنجاني قهوة على مدفأة كهربائية صغيرة كانت قد أحضرتها هيفاء مع ركوة قهوة، وعدد من الفناجين إضافة لنصف كيلو من البن وعلبة سكر وملاعق صغيرة. استطاعت ان تجد لها مكانا قرب المغسلة الصغيرة المنزوية طرف المدخل.

كان هاني يراقب الفرحة المرسوم في عينيها وفي حركتها النشطة في هذا الحيز الضيق، والذي غمره بالاحساس بأن لهذه الاشياء خصوصية جميلة.

قبل الظهر قررت ان تترك المكان وان ترجع الى البيت حتى تعد شيئا للولاد يأكلونه قبل ان يرجعوا من المدرسة، سألته إن كان سيأتي للغذاء وأشارت على صديقهما الفنان أن

يحضر معه لكنهما أكدا بأنهما سيأكلان ساندويتشا هنا حتى ينجزا العمل كاملا.

كان الغروب قد أخذ يتسلل الى الارض لكنه لم يكن ملحا لاشعال ضوء. اعد هاني القهوة ورجع لصاحبه الذي أنهى لتوه تعليق اللوحة ووقف يتأملها باعجاب، نظر هاني اليه وسأله:

- هل انتهى هذا الفن؟

انتبه الفنان مبتسما:

- بيكاسو لن يتكرر.

قال هاني وهو يسكب القهوة:

- اقصد الحروب الالهية هل انتهت أم أنه لم يعد هناك فن قادر على التعبير عنها؟

ارتد الفنان. تناول فنجان قهوته:

الحروب ما انتهت، والفن ما انتهى لكن المفاهيم تغيرت، تشعبت أكثر، صار من الصعب التقاطها، الحياة صارت أكثر حميمة واكثر تخصصا. الفن الآن أعظم كثيرا من الماضي.

وقبل ان يكمل قاطعه هاني ضاحكا:

- حتى فن هذا البلد؟

- بالتأكيد.

حسم الفنان الامر بجدية.



كانت اللوحة قد انحرفت. لاحظ هاني ذلك وقرر انه سيعيد ترتيب كل شئ في الصباح.

الساعة تجاوزت الثالثة عندما غادر المكتب، لم ينتظر المصعد طويلا فعندما ضغط الزر سمع الجرس الذي يؤذن بوصوله. عندما فتح الباب فكر بأن شهيته للطعام ليست كما يجب، على الرغم من انه لم يأكل شيئا منذ الصباح، لقد احتسى أكثر من عشرة فناجين قهوة وتذكر وهو يتحسس جيوبه انه قد احرق علبة السجائر التي اشتراها من البقالة المجاورة قبل أن يأتي الى هنا كان قد وعد هيفاء التي لاحظت انه لا يشاركها والاولاد الطعام بان يكف عن تناول القهوة والسجائر قبل ساعتين من تركه المكتب وذلك ليهيئ نفسه للاكل، لكنه في غمرة العمل ومع عدد الحضور الذين اضطر لمجاملتهم في شرب القوة حتى النهاية لم يتمكن من الوفاء بوعدده. رشف آخر جرعة من فنجان قهوته وكانت باردة، قبل ان يفكر بالمغادرة وأطفأ سيجارته الاخيرة.

على الباب كان عمال النظافة قد اوشكوا على الانتهاء من تنظيف المدخل وجمع القمامة من السلالم الموزعة هناك وعندما خرج الى الشمس رأى إحدى العاملات ما تزال تنتظر من يقلها الى البيت وقد تأخر عليها كثيرا، كانت تنظر الى الساعة بتأفف، رفعت رأسها عندما لمحت ظلا يخطر قربها كان هاني قد صار بجانبها تماما، حياها برأسه وهبط الدرجات المؤدية الى الرصيف بهدوء وعلى غير استعجال .

في تلك اللحظة وعلى الجهة المقابلة، وقف سيارة على الرصيف دون ان يبدو على صاحبها أي اهتمام كونه مخالفا لقوانين السير. لم يعط هاني اهتماما لها أو هو تفكيراً بأن صاحبها رجل مدعوم.

لم يطل التفكير بالامر ونسيه تماما عندما وقف ينتظر ان تهدأ حركة السيارات. أخذ يتلفت يمينا ويسارا محاولا اقتناص لحظة للعبور. وقتها كان باب السيارة الواقفة على الرصيف قد شق لكن دون ان يخرج منه احد. لمعت في ضوء الشمس عدسة كاميرا رفعها الرجل الجالس هناك أخذ يدور بها بهدوء على السيارات العابرة ينتقل بين الرصيف والبنائيات العالية كأنه يبحث عن شئ ما بعينه. ثم عندما ابصر هاني داخل الزوايا الصفر الاربع بعينه اليسرى توقف، داعب العدسة بأناة فأخذت صورة هاني تقترب حينا وتبعد حينا اخر الى ان ثبتت في مكان ما، وضحت تماما وصارت جليه. عندها ضغطت بالسبابة على الزر فخرج صوت تكة ناعمة، أعاد الكرة كان هاني قد تلفت في الاتجاهين اكثر من مرة، التقط الجانب الايسر من وجهه ثم الجانب الايمن واخيرا عندما عبر الطريق صار وجهه امام العدسة مباشرة علت تكات الكاميرا بسرعة. بدا وجه هاني واضحا هذه المرة، شارباه، نظارته البيضاء الرقيقة حتى عينيه اللتين انعكس عليهما نور الشمس.

اقترب من السيارة الواقفة جنب الرصيف سحب الباب الى الداخل وصار مواربا بالكاد يظهر انه يخفى احدا خلفه، تحين الرجل الفرصة، ثم أخذ يلتقط صورة اخرى بجرأة

محترف، تبين له قميص هاني الازرق السماوي والبنطلون الرمادي والحذاء الاسود بدقة قبل ان يختفي.

لم يتعجل الرجل الانتهاء استمر يراقب الاشياء المحيطة به، رفع العدسة وجهها صوب البناية التي خرج منها "هاني" كانت المرأة ما

تزال تنتظر من يقلها الى البيت. دون تفكير ومن قبيل التسلية التقط لها صورة، ثم تلهى بتقريب وجهها اليه التقط لها صورة ثانية، أظهرت انتفاخ وجهها وهي تتأفف وتتنظر الى الساعة للمرة الالف. ثم فجأة تنبه وجد انها تنظر صوبه بعينين ثابتتين مندهشتين، أصابته رجفة مفاجئة كادت تسقط الكاميرا من يده ويفر، لكنه عندما ابعد الكاميرا عن عينيه تأكد انها بعيدة عنه وهي تتحقق انها رأت بالفعل باب السيارة يتحرك.

منذ الساعة الواحدة والرجل ينتظر. كان قد اخذ المعلومات كاملة. الاسم، الاوصاف، المكان الذي يعمل به، الشارع، البناية، الشقة. منذ أيام أخذ يتردد على المكان اكثر من مرة، تحاور مع ( العمال وحارس البناية العجوز حتى انه صعد الى الدور السادس حيث مكتب هاني، دفع الباب) المؤدى إليه ودخل وهو مهياً للاعتذار. رآه جالسا خلف المكتب كما الوصف تماما وكما يعرفه من الصحف، ومن المقالات التي ازدادت في الفترة الاخيرة والتي ارفق بها عدد من الوثائق تشير باصابع الاتهام لشخصيات معروفة بانها. وراء قضايا الفساد والرشوة وارتفاع اسعار السلع بشكل جنوني، وكذلك صور حوارات تدل على تهريب أموال الى الخارج. حتى رأسه معتذرا للخطأ الذ لم يعره هاني ادنى اهتمام فالمكاتب هنا متشابهة،

الأسماء على الأبواب لا تكفي لمنع الناس من الوصول الى الاماكن الخطأ والرجل فهم ذلك بيسر أو بحكم العادة.

اليوم فقط استطاع ان يرصده، فمنذ ايام أوكلت له هذه المهمة ولكنه لم يستطع رؤية هاني كما اليوم ففي بعض الاوقات لا يأتي الى المكتب طوال اليوم. وفي اوقات اخرى يغادر الساعة العاشرة أو بعد ان

يحضر الى المكتب بنصف ساعة، وفي مرات عديدة كان يخرج مع أحد الاصدقاء، أو مع عدد منهم. مما أدى الى فشل المحاولة ودفع ذلك الرجل المتأفف للسأم والسب ولشتم أصل هاني الذي يكلفه عناء اكثر مما يجب.

لم يكن معنيا بمعرفة الاسباب وراء مهمته هذه، عندما أعطى الاسم استهجن ذلك لانه يعرفه تماما، كما استغرب ان يكون المطلوب منه النقاط صور له، حيث لا يكاد يمر يوم دون ان تكون له صورة او مقالة في جريدة من الجرائد وخاصة تلك المليئة بالوثاق التي تلمح الى امور يستطيع ان يفهم انها خطيرة، لم يسأل كثيرا لكنه قدر بخبرته الطويلة بان الصور المطلوبة يجب ان تكون عادية غير مصطنعة كما تكون بالصحف عادة.

اليوم فقط تيقن من وجوده وحيدا في المكتب واطمان الى ان سيارته المرسيديس تقف بمكانها المعتاد لم تتحرك.

لقى الكاميرا على المقعد الجانبي، فتح الباب وخرج من السيارة. مد قدميه شعر بهما خدران دار نصف دورة دون ان يثير الانتباه، كان هاني قد حرك سيارته. عندما عبر قريبا منه سمع صوت فيروز آتيا من النافذة المشرعة، اهتز محاولا

تحريك عظام جسده التي تبيست من الجلوس والانتظار وقتها رمقته المرأة بملل، وتأكد هاجسها. نزلت الدرجات بسرعة، أشارت الى سيارة تاكسي كانت عابرة من هناك صعدت إليها وهي تنظر خلفها نحو الرجل الذي لم يعرها ادنى اهتمام.

عندما اعتزم الاصدقاء ترشيح هاني لمجلس الشعب عد الامر نوعا من المزاج، أو هو في أبعد مدى لا يعدو غير حال من التكتيك

ومحاولة للتفكير بخطط المستقبل. في الوقت الذي صار الحديث فيه عن البرلمان والحياة الانتخابية هو الشغل الشاغل للاعلام وللسياسيين وللحزاب وحتى لعامة الشعب.

لقد اعتاد الرفاق وضع الاقتراحات السريعة التي تأخذ مع الوقت بالتحول، حتى تغيب الفكرة الاولى في طى النسيان وكأنها لم تكن. كان هاني يفهم هذا الفعل كحال من الجدل وكان ينال الكثير من الراحة عندما يراقب الاشياء وهي تتحول بطريقة سهلة، بتداع ينقل الحالة من صورة الى اخرى مغايرة لها بتسلسل مذهل .

وعندما اقترح اسمه كمرشح للحزب لم يعمل رأسه بالامر طويلا فلقد كان متأكدا الى حد ما من أن الامر سيتحول عنه الى مرشح اخر أقل حضورا. ثم من باب الاختبار لمشاعر الناس التي اوكشت ان تفقد الخبرة في العمل الانتخابي وحرصا على ان لا يمضى الحزب بهزيمة تضعفه في الوقت التي يسعى فيه الى كسب الناس منذ ان خرج الى العلن بعد قرون من التخفي، فلربما يتم ترشيح احد الاصدقاء. لذا عندا اقترح اسمه ضج الحضور بالتصفيق حتى أن بعضهم هتف باسمه ضاحكا. فهتفوا معه.

وعندما انتظروا منه تعليقا أشار بقناعته الاكيدة:-

- علينا ان ننتظر

خارج الاجتماع أشار الى الرفيق الذي اقترح اسمه، سحبه من يده انزوى في ركن غير بعيد وسأله عن مدى جدية ما طرح.

كان الرفيق متحمسا وبدا لهاني انه لم يرتجل هذه الفكرة ارتجالا كما يبدو، بل درسها بعناية حتى انه مد يده داخل جيبه واخرج منها بضع اوراق كانت مثناه، فتحها وصار يقرأ بعض ما فيها من جمل ويحاول شرحها، قال انه درس الامر بجدية، وضع أمامه مصحلة الحزب ومدى الطموح الذي يرغب في المرحلة القادمة، ثم أشار الى انه قد وضع عددا من الاسماء كان اسم هاني ضمنها ثم عندما عرض ملاحظاته على الاخرين وجد أنهم يميلون لاختياره، كما أكد بأن شعبية هاني في الايام الاخيرة تقدمت بصورة عظيمة خاصة مع كتابته في الصحف وجراءته في طرح الوثائق التي تكشف العديد من القضايا. قال له: انت لا تعرف كيف يقبل الناس على قراءة ما تكتبه؟

حتى الساعة كان هاني ينظر الى الامر باستغراب لكنه لم يرق الى حد الدهشة فهو ما يزال مقتنعا بأن هذا الامر لا يعدو كونه تكتيكا مرحليا لا سيما انه قناعات اخرى، مختلفة فهو يحبذ ان يكون مرشح الحزب من خارج الحزب.

خلال وقفتهما تجمع حولهما عدد آخر من الرفاق. أشاد بعضهم بالاقتراح وضرب على كتب هاني مشجعا. أمام هذه الحملة الشديدة أحس هاني بأنه مضطر لإبداء رأى كان قد فكر

طويلا بتأجيله من صيغته بصورة شاملة وعرضه على الاجتماع رسميا في المرة القادمة. لكنه أمام الحالة التي وضع بها، ولمعرفته التامة بما يمكن ان يدور حتى الاجتماع القادم من أمور قد تصل الى حد الإقرار، فلقد اضطر ان يصرح بأنه ضد المشاركة بالمطلق.

عندما صرح هاني برأيه هذا عم صمت مفاجئ على الرفاق المتحمسين. الا ان بعضهم استمر بضحكه الذي كان متواصلا بعد

خروجهم من الاجتماع على اعتبار انه لا يصدق ما يسمعه. ونتيجة لان هاني ابتداء فلقد صار يشعر بانه ملزم بأن يوضح ما يبدو برأسه.

قال: الاشياء تذهب بسرعة ما تجيئ، هذه التجربة تحتاج الى طول نفس، يفترض ان نفهم دور الحكومة وتاريخها كأنه يفترض بنا أن نعلم بأن الوصول الى المجلس لا يعني الوصول الى الناس، انظروا الفوضى في كل شئ، الفساد، الخراب ماذا سنفعل غير ان نحتمل وزر الخلل إن نحن فشلنا في علاجه ومن ثم نحمل غضب الناس.

لا أريد أن أعالج الأمر بهذه السرعة ساعد بعض الملاحظات للنقاش وبعدها تقرر. ختم هاني كلماته السريعة المرتجلة وكأنه لا يرغب في فتح باب حوار جديد.

بالرغم من الجدية التي انطبع بها الحوار الاخير، إلا أنه لم يصل الى حالة الاقتناع بأن ذلك قابل للتحقق.

الليل انتصف وشوارع المدينة هدأت. أضواء البيوت أخذت بالتلاشي، والرفاق ارتحلوا بعد ان ضج المكان بأصوات محركات سياراتهم، لم يلبث الضجيج الا قليلا ثم اختفى، اسقط الليل رهبته بظلام قاس تكون فجأة عندما انصرفوا. أما هو فقد اعتزم ان يمشى قليلا فالفكرة صارت تدور في رأسه بسرعة.

ترك السيارة حيث ركنها أول الليل في آخر الشارع المؤدى الى مكان الاجتماع. لم يجد مكانا أكثر قربا وعندما ودع الرفاق واتجه نحو سيارته راقته له فكرة ان يمشى. تجاوزها واخذ يبتعد، كانت تدور في

رأسه حوارات الاجتماع، تذكر ملاحظته في المرات الاخيرة. إن الحماس لم يعد كما يجب لقد فتر فلم يعد هناك صراع بالمعنى الحقيقي. ولم يعد الرفاق يحبون إحساس البطولة عندما كانوا يمارسون العمل السرى، تشعبت أفكاره، حسب ان البعض يرغب بالخروج عن المألوف لذا كان نصف الرفاق من البرجوازيين الذين يسعى الحزب للاطاحة بهم، حالة طفولية، ملاحظاتهم، فكر بالمناضلين الذين احترقوا في زمان العمل السرى. كيف أنهم كانوا يمارسون العمل بحماس فاطر فلم يعودوا مهتمين بالاعتقال أو التعذيب أو حتى النفى. أمام حماس أولئك الشباب المتوهجين بالرغبة في الثورة وفي تغيير العالم. انطلق أمامه شريط سريع لسنى عمره التي قضاها متنقلا بين هذه المراحل. تبسم وهو ينتقد ذاته كيف أنه أوشك ان يكشف الكثيرين نتيجة إحساسه بأنه لم يعد معنى بالتنكر والاختفاء، حتى انه كان ينسى ان الحزب محظور وان السرية هي اهم أساس لوجوده.

طالت الطريق وتأخر الوقت، وصارت المسافة الى السيارة أبعد، لامسه شوق دافئ لهيفاء، نظر في الساعة كانت قد تجاوزت الواحدة، القى السيجارة من يده وقفل راجعا، كأنه لمح حركة داخل سيارة مظفأة. حاول التذكر ان كان قد رآها عندما عبر من هنا لكنه فشل، تحقق فلم ير ما يحفظ تنبئه أكثر. شد خطواته قليلا وعندما قطع مسافة سمع صوتا نظر خلفه كانت السيارة قد تحركت لكن دون ان تشعل الاضواء، لامسه شئ من القلق طرده قبل ان يستحکم به :

- قد يكونان عشيقين؟

تيقن انه قطع طريقا طويلا، قبل ان تلوح له سيارته. شاهد السيارة التي أبصرها أول مرة تأتي من بعيد ببطء، وقتها أيقن بأنه مراقب،



راجع الاحتمالات برأسه بسرعة. الاعتقال، التوقيف، الاعتداء السريع. لاحت سيارته له وكذا بيت الرفيق الذي كان مطفأ وساكننا بصمت عميق، لا أحد في الشارع، عبرت السيارة بجانبه كانوا ثلاثة رآهم رغم العتمة.

سجائرهم كانت تتحرك بفوضى. تجاوزوه، اختلط عليه الامر-  
بماذا يفكرون؟

هي لحظات قصيرة لم تسعفه للوصول الى غايته، لاحت له انوار متحركة كانت تأتي من وراء الزاوية القريبة مشفوعة بالهدوء، أسرع، برزت في وجهه سيارة شرطة ما أن بدا لراكبيها الذين كانوا ينتظرون حتى فتحت أبوابها وقفز منها ثلاثة رجال انقضوا عليه .

حاول ان يبعدهم عنه لكنهم كانوا أقوياء، دفعه أحدهم الى السيارة وبدأ بتفتيشه، تحسس صدره وإبطيه وهبط بحركة آلية الى الاسفل، مرر يده من بين فخذه باتقان، ثم دفعه الى داخل السيارة.

تحرك دماغ هاني بسرعة ماذا سيفعل وما هي الخطوة التي سيقدم عليها؟ الامر ليس اعتقالا روتينيا ما بدا له وان كان مرسوما ليبدو كذلك حاول ان يسأل عن سبب توقيفه، لم يجبه أحد، حتى ان الرجال الثلاثة لم يتكلموا أية كلمة فيما بينهم، رفع أحدهم وهو الجالس قرب السائق في المقدمة جهاز الارسال وأخذ يرسل كلمات ورموزا فهم منها هاني بانه مشتبه به.

قال للشرطي الجالس بجانبه في المقعد الخلفي انه يحمل هوية في جيبه، لم يعره هذا اهتماما وظل صامتا كالأخرين. عندما تحركت السيارة رأى بضوئها الساقط على الطريق السيارة الشبح التي كانت تلاحقه، كانت قد انهدت مهمتها، وظلت تنتظر عبور سيارة الشرطة بقربها، كان الثلاثة ينظرون بوجوه غيب الليل ملاحمها. ما ان تجاوزهم حتى أحس بأنهم قد مشوا، نظر الى الخلف من زجاج السيارة كانت قد تحركت في الاتجاه الآخر، فهم الآن بأن مهمة أولئك قد أنجزت.

لم تطل الطريق، فعند مركز الشرطة وقفت السيارة، كانت هناك شرطي صغير السن واقفا بنوبة حراسة. تنبه عندما سمع طرق الابواب وكأنه كان نائما بوقفته الروتينية.

أطفئت انوار السيارة وظل الضوء المعلق على سطحها يدور بصمت يمسح الوجوه التي تبرز ملامحها للحظة ثم يغيبها العتم.

الحي ساكن والشوارع مقفرة. خرجوا كلهم من السيارة.

اعتزم هاني ان يقدم هويته للضابط المناوب بعد أن أيقن أن لا وسيلة للتفاهم مع هؤلاء وبعد ان تيقن من ان المقاومة لم تكن لتجديه نفعا فيما لو حاول ان يرفض التوقف، فلقد رأى على الوجوه عزيمة على تحطيمه إن فعل.

في المركز وجد ان الفرصة قد لاحت للحديث ولفهم ما يدور.

لكن قبل ان تزهـر هذه الفرصة، سمع الشرطي المرافق له يقول  
لبعض الرجال الذين كانوا ينتظرون هناك:-

- وجدناه يحاول سرقة إحدى الشقق.

- أين؟

سأل ضابط مشرع قميصه عن شعيرات ناعمة غطت صدره جلس  
خلف مكتب القى عليه قبعته العسكرية، بدأ في عينيه احمرار النوم.

اجاب الشرطي بأنه بنفس الحي الذي كثرت فيه السرقات في  
الأونة الاخيرة.

وقتها قال هاني بان في الامر سوء فهم، واخذ يعرف بنفسه  
كمستشار قانوني وصاحب مكتب خاص كما انه كاتب صحفي ولا بد ان  
احدا ما هنا يعرفه، قاطعه أحد الحاضرين كان جالسا على مقعد بعيد  
يرتدي لباسا مدنيا:-

- هل تحسب ان اللصوص يعيشون بلا هوية؟

ماذا اذا؟ سال وهو يؤشك ان يتفجر.  
قال الضابط:-

- ستعترف؟

سال هاني

- بماذا؟

- أسماء شركائك و عدد الشقق التي سطوتم عليها.

في تلك اللحظة تأكدت لهاني الظنون التي كان يحاول ان يبعتها عن رأسه، لقد دبروا له هذا الفخ عندما رأوه يمشي وحيدا. بالتأكيد كانوا يراقبون البيت والاجتماع وعندما أصبح وحيدا في الشارع خطرت في ذهن أحدهم هذه الفكرة. لكن الى أين يتجهون وتساءل ما هي نتيجة ذلك؟

وقبل ان ينتهي من تساؤله جاءه الجواب مشرعا بقرار الضابط و اشارته للرجال:

- أقنعوه بالاعتراف.

التف حوله عدد من الرجال بعضهم في ملابسه العسكرية والبعض الاخر في منامات مفكوكة الازرار مكتملة أو بالنصف الاسفل أحيانا. دفعه أحدهم بصدرة بقوة وصرخ به:

- اعترف يا كلب.

ودون ان ينتظر جوابا، لكم بقبضته المكورة وجه هاني الذي ترنح وأوشك ان يسقط على الارض. تلقاه رجل كان يقف بعيدا، لاحت بيده عصا غليظة انهال بها بكل قوة على كتف هاني الذي حسب انه سمع صوت عظامه تتهشم. دارت به الارض، ترنح ثم سقط كانت الارجل والظلمة تدوس على جسده المتكوم على البلاط الوسخ ذي الرائحة النفاذة كأنها رائحة بول.

في الوقت الذي نبهت فيه " هيفا" الاصدقاء الى ان هاني لم يرجع الى البيت، كان ذلك قبل الفجر بلحظات بعد ان استيقظت على تكات الساعة الخامسة. وقد تلمست السرير فلم تجده.

خرجت الى الصلاة كانت معتمة كما تركتها قبل ان تنام، ساكنة لا يبدو فيها آثار لحركة تدل على انه قد عاد الى البيت أو صنع فنجان قهوة كعادته، كما انها لم تشتم بقايا رائحة سجائره تلك الرائحة التي تحمله إليها كلما تأخر ولم تقدر على انتظاره ساهرة، كان عندما يرجع يتجه الى المطبخ يصنع فنجان قهوته ثم يشعل سيجارة ويجلس على مقعده الاثير يلتقط أنفاسه أو يقرأ في كتاب ما يحمله معه .

منذ سنين اعتاد الاتصال بها في حال قرر المبيت خارج البيت، كما انه في الليلة الماضية قبل ان يخرج للاجتماع طلب منها أن تنتظره ان استطاعت لانه مشتاق للجلوس معها.

لقد أكد ان الاجتماع سينتهي مبكرا.

فكرت بسرعة بما يمكن ان تفعله. لم تتردد طويلا عندما رفعت سماعة الهاتف واتصلت بمنزل الصديق الذي كان الاجتماع مقررا في بيته، جاءها صوته النائم ليخبرها بأنه قد غادر قبل منتصف الليل وأنه تأكد من رحيل الجميع. وقتها أحست هيفاء بالقلق. لم يستغرق الامر أكثر من نصف ساعة حتى كان الصديق الفنان قد علم بخبر غياب هاني وكذلك الاصدقاء الآخرون. وما ان طلع الصباح تماما حتى انتشر الخبر وضج الاصدقاء والاهل بالبحث خاصة بعد ان تأكدوا من الاماكن والبيوت التي يمكن ان يتردد عليها، ولم يتحول قلقهم الى خوف الا

عندما وجدوا سيارته مركونة في مكانها القريب من بيت صديقه باردة منذ الليلة الماضية. وقتها وضعت الخطط للبحث عنه.

اتصلوا بالشرطة كما يجب، والمستشفيات. كما انه تم تشكيل وفد على عجل مكون من قدامى الحزبيين توجهوا الى دائرة المخابرات المركزية واستقبلوا باحترام من قبل احد الضباط الذي اكد لهم ان الدائرة لا تعرف شيئاً عن مكان وجود هاني وانهم معنيون تماماً بسلامته، كما وعدوا بالقيام بواجبهم بالبحث عنه لثقتهم بأن هاني شخصية وطنية مهمة.

خرج الوفد من هناك بنفس القناعة التي لديه بأن هذه الزيارة لا تعدو غير جزء من روتين غير عادي يفترض القيام به، وان كان قد لمح لهم الضابط الكبير الذي اجتمع بهم بانه يخشى من وقوع جريمة لا سيما ان الجرائم قد ازدادت في الآونة الاخيرة لاسباب تافهة مثل السرقة.

علق بعض الاصدقاء بأن هذا لا يعدو غير تحذير من الحكومة لهم، او هو تمهيد لعمل اقدمت عليه وتبحث عن السناريو المناسب له.

وعندما ودعهم الضابط على باب مكتبه قال بكلمات تخفى خلفها أمراً:-

- سمعت انكم سترشحونه للبرلمان؟

لم يفكروا بالرسالة التي اراد ان يوصلها لهم نتيجة لحالة القلق التي اخذت تزداد خاصة عندما تحدث الضابط عن جرائم القتل التي ازدادت في الآونة الاخيرة.

في ذلك الوقت كان هاني الملقى في زاوية زنزانة معتمة قد هشم من اللكمات والعصى التي انهالت عليه لساعات. كان متعبا مهدودا، يتحسس في كل لحظة منطقة ألم جديدة في جسده. لقد احس بأنه عاجز عن تحريك فكه نتيجة ثقل شديد نزل عليه من خده وكان يشعر بأحد ضلوعه مهشما تماما.

حاول ان يبتسم عندما تذكر إلحاحهم عليه بان يعترف بسرقة منزل احد الاغنياء، وكيف انه كاد ان يعترف بذلك ليتوقفوا عن ضربه رغم انه طوال سنين من الاعتقال لم يقر

بأية معلومة عن عمله السياسي ولم يفكر أبدا بذلك رغم شدة ما يلقاه.

حاول ان يستجمع أفكار، كيف تفكر الحكومة:

( ارتجال. لا يوجد شئ مدروس) ردد بصوت هامس.

أخذت ترجع لذهنه الاحداث، كيف خطرت الفكرة لاحدهم عندما رآه وحيدا ولم يجد من يعارض اقتراحه، الآن هم مشغولون بالبحث عن مخرج لا يوجد أمامهم سوى احد امرين أما التخلص منه نهائيا أو الاعتذار على هذا الخطأ.

تمنى ان يكون قرارهم هو الثاني. وامعن فكره فيما يرجح احد الامرين. الظروف العامة للبلد، ردة الفعل على غيابه وأثرها على الناس، قدرتهم على التسرع في أفعال القضية. هو لم يشك أبدا بها،

تشنت ذهنه المتعب فقرر ان يكف عن التفكير أو ان يخلد الى الراحة وهي اكثر ما يحتاجه في هذا الوقت.

عند الظهر انتشر خبر اختفاء " هاني الجابر " وقررت اللجنة المركزيو للحزب عقد اجتماع سريع لتدارس تطورات عملية البحث وحددت الساعة الخامسة موعدا للاجتماع. استدعى الاعضاء من الاماكن البعيدة عن العاصمة بالسرعة الممكنة واخذ المكتب الاعلامي يعد بيانا من اجل توزيعه على وكالات الانباء. تم اعداد بيان جماهيري تركت نغمة كثيرة منه فارغة لحين انتهاء اجتماع اللجنة المركزية والتخمينات شتى بين اعضاء المكتب هل سيدعى لاضراب عام أو يطلب من الحكومة بذل أقصى جهد من اجل وضع حد لاسباب اختفاء هاني بالسرعة الممكنة.

وعند المغرب اجتمعت اللجنة المركزية. وكفت هيفاء والاولاد عن تلقي المكالمات الهاتفية. عندما تحول الامر الى إحدى الصديقات المقربات من العائلة لتلقي أي اتصال للاستفسار عن هاني. جلست هيفاء على مقعد الخشب العتيق الذي كان يجلس عليه هاني دائما. كان مقعدا ثقيلًا نقله هاني من بيت أهله عندما خرج من السجن، كان يحكي لهيفاء عن تاريخه وعن ارتباطه النفسي به.

كان يحكي لها عن مرحلة في العمل مريحة وممتعه بتلذذ عندما يبدأ بالتذكر، البيت ذو الحجر الواسعة، الضيوف الكثر، الحركة اللذيذة لأنغام النساء يجهزن البيت للضيوف ويتجمعن للحديث عن الرجال الذين يمرون بالبيت ويحلون ضيوفا على صاحبه الرجل الكبير الضخم أبيه.

كان الاكل أطيب، والاحلام أفسح من أن تسعها الارض، والناس طيبة، وكانت هذه المقاعد تحتل صدر الصيوان تفصلها ثلاث طاولات



صغيرة غطيت بأغطية حريرية مزهرة، وعليها وضعت منافض ضخمة كأنها أوان للطعام. وقت يخطر العابرون يعرف كل منهم أي يكون موضعه واين يجلس. لم تكن المقاعد الكبيرة الثلاثة لتشغل الا عند قدوم الكبار من الوطنيين أو الضيوف القادمين من البلاد المنهكة بالاحتلال.

كانت هيفاء تتركه ليسبح متلذذا بأحلامه، بالطقوس البديعة للذاكرة، السجائر، القهوة. نبرة الصوت الدافئة الحنونة، ذاك البريق الحاد في العينين وذاك الصوت الرخيم.

وكانت هيفاء تعرف أنه لو كان الزمان احلى ما كانت لتسمع كل هذه الحكايات.

جلسات على المقعد قبالة الباب، كانت متماسكة قوية أمام الصغار والضيوف وأمام نفسها التي اعتادت غيابه.

( ها أنت يا هاني تغيب كعادتك لن تهدأ وتستقر يا صغير).

هذا ما همست به وكأنها تستسلم لكل ما يمكن ان تأتي به الاخبار.

أجلت اللجنة المركزية اصدار البيان، اختلفوا في من سيجملونه مسؤولية اختفائه، البعض أكد ان السلطة هي المسؤولة سواء كانت هي وراء اختفائه أو لم تكن. فهي مطالبة بالبحث عنه. والبعض الآخر بعدم التسرع وعدم فتح باب مواجهة مع السلطة لان الذين يخالفون الحزب وهاني لا يحرصون، وعليه فقد تم تأجيل إصدار البيان، إلا أنهم ابقوا اللجنة في حالة اجتماع مستمر. طلبوا طعام الغداء من احد المطاعم لعدم

تمكن زوجة الرفيق الذي يجتمعون في بيته من اعداد طعام يكفي العدد الكبير الذي حط في بيتها مرة واحدة. واستأذن أحد الرفاق ان يشرب كأس عرق قبل الطعام ولحقه رفيق آخر. انسحبا الى المطبخ سكبا كأسين وصارا يتذوقان قطع اللحم التي تجهد صاحبه البيت بتنسيقها في أوان زجاجية غير تلك التي جاءت بها من المطعم.

لم يكف التليفون عن الرنين، كانت الاصوات مألوفة كلها تتساءل عما صدر عن الاجتماع أو عن نتيجة البحث.

وردت برقية من الاتحاد السوفيتي صادرة عن مكتب الحزب فرع المنطقة العربية شدت من أزر المجتمعين وأعدت الى ذاكرتهم ذكرى الايام الخوالي. فتحوا أكثر من زجاجة عرق، وأرسل الرفيق صاحب البيت ابنه الشاب بسيارته الرياضية لإحضار المزيد منها، واتبعها الشاب بذوق منه بأكياس من المكسرات وعلب السجاير.

و عند انتصاف الليل بدأوا يبحثون خطة توزيع الرفاق القادمين من مدن بعيدة على بيوت الآخرين للمبيت ، خرج بعضهم وتخلف آخرون.

رن التليفون ثانية، ولم يكن هناك سوى أصوات حوارات خافته متعبة من السكر أو الجدل تأتي من زوايا البيت. رفع السماعه أحد الاولاد الصغار. كانت المتكلمة هيفاء طلبت من الصغير ان يستدعي احد الكبار للتحدث معه، عرف الصغير صوتها صار يسألها عن أصحابه من أولادها كانت متلهفة وهي ترجوه ان يدعو لها أمه، مد السماعه لأحد القادمين، قال:-

- انها خالتو هيفاء.

تناول الرجل السماعه سأل هيفاء بلهفة عن الاخبار

ردت بصوت هادئ:-

- لقد عاد، أنه هنا.

\* \* \*

## الفصل الثالث

## الرجل الثالث

(1)

كان طلعت الاسمر قد دخل مكتبة متعجلا، أشعل النور ثم توجه نحو طاولته دس مفتاحا صغيرا في ثقب أحد أدراجها ثم سحبه، رفع بعض الاوراق المرتبة ثم من تحتها سحب ملفا أصفر اللون مطبوعا عليه سرى للغاية.

دون ان يجلس بدا يقلب صفحات الملف وكأنه يستعد لدخول امتحان في اللحظة الاخيرة، أغلق درج المكتب، أطفأ الضوء وخرج. كان الممر الطويل المحاط بالابواب مقفرا وساكنا. حتى عندما بدا بالمشى أخذ صدى خطواته يرن بالمكان بإيقاع مشيته الثابتة السريعة، وعندما انتهى من عبور الممر خمد الصوت تماما وعاد الهدوء ثانية الى المكان.

لا يذكر أبدا إن كان هذا الممر خاليا، فخلال سنى ترده الى هنا سواء عندما كان طالبا في الجامعة في الوقت الذي كان يأتي بتقاريره عن حركات الطلاب ونشاطاتهم، يدخل في ساعة متأخرة بعد ان يلقي عشرات الاسئلة خلال عبوره من البواب الرئيسة حتى يصل الى مكتب الضابط المسؤول الذي يتركه واقفا خلف الباب أوقاتا طويلة. حتى صار موظفا رسميا بعد التخرج متدربا لا يجد مكتبا يضع فيه أوراقه وأحلامه التي طالما اشتهى ان يحققها فكان يجلس خلف طاولة مكتب أحدهم أثناء التحقيق مع أحد المعتقلين يستمع ويتعلم دون أن يكون له حق التدخل .

ورغم انه كان يشعر في أحيان كثيرة بعدم قدرة أولئك المحققين، وبأن هناك الكثير من الجوانب المهمة التي لا يتمكنون من اقتناصها من المتهم، الا انه كان يبقى صامتا ملتزما بالأوامر المعطاة إليه بأنه لا يعدو أن يزيد عن كونه متدربا يفتقد لخبرة أولئك الذين عاشوا تجارب عظيمة في زخم الحركات السياسية المتفجرة دائما في البلاد، والتي دفعتهم للتعامل مع كافة أصناف الناس السياسية. من الماركسيين المعتدلين منهم والمتشددين الى المتدينين المتطرفين، الى أولئك دعاة الكفاح المسلح والقوميين. عمال وموظفين وطلبة وشيوخ وقساوسة وحتى الذين انشقوا عن النظام وشقوا عصا الطاعة لمطامع أنانية فيهم.

كان طلعت يبدي تبرما من قدرة هؤلاء السطحية، وافتقارهم للابداع في التحقيق وفي سحب المعتقل الى هاوية الاعتراف بيسر. لذا يكرر في مجالسه الخاصة القريبة ان هذا الجانب ايضا يحتاج الى تجديد وبث روح جديدة فيه. اشتكى أثناء التقييم من تكرار الاسلوب ذاته مع المعتقلين كافة على الرغم من كون كل واحد منهم يحتاج معاملة خاصة وأسلوبا مميزا له.

وخلال السنين التي قضاها في عمله ومع الدورات العملية التي تلقاها في البلد أو في الخارج استطاع طلعت ان يترقى الى مناصب متقدمة. كانت تؤهله لاتخاذ قرارات حاسمة، لكنها لا تتجاوز أمورا سطحية بسيطة مثل النقابات المالية أو الحركات الطلابية الاقل خطورة على أمن الوطن دون أن يرقى الى دخول عالم الحسم في القرارات السياسية العليا.

ومع اقتراب فترة ترقبته كان ينكب على عمل شئ ملفت جديد يهز أركان الدائرة ويثير غيرة وحسد زملائه الذين تخطاهم بجده وتفانيه.

وفي الايام الاخيرة كثر الحديث عن امكانية نقل أحد المسؤولين الكبار لشغل وظيفة مدنية بعيدا عن الدائرة. قرر طلعت أن هذا المكتب هو أقصى أمانيه فكر بأنه يستحق عملا عظيما بعظمته يكون الطريق الذي يعبر به إليه.

لذا أنكب على التفكير والتخطيط وإعادة قراءة الملفات القديمة والتقارير الجديدة التي تصل للدائرة باهتمام وعناية دون أن يستخف بأدنى ملاحظة تقع عليها عيناه.

توقف أمام تقارير تتحدث عن أناس مغمورين يعتقد بأنهم يملكون أسلحة، بنادق ومسدسات وقنابل يدوية، لم تعنه كثيرا، كان ينظر الى أمر آخر أكثر رهبة وعظمة.

استبعد فكرة قيام حركات انقلابية في هذا الزمان. فكر أن يدفع بعض الاتباع لخلق حادثه ما تتحدث عنها المدينة فترة من الوقت، قبل ان يتدخل هو لحل لغزها المحير، جريمة قتل، تفجير سيارة، حريق مصنع كيماويات. لكنه عاد واستبعد كل ذلك لأن الواقع السياسي لا يسمح بذلك الآن.

ورغم صمته عن التعليق على تخمينات زملائه الشتى بخصوص البديل المفترض لمسؤوله وامتناعه عن التحدث بهذا الأمر أو إبداء أي تصريح، إلا أن كل من يحيطون به كانوا يعرفون تماما أن طلعت يفكر بجد بهذا الامر وأنه ليس معنى بالكلام الذي لا يعطى فائدة .

وعندما أوشك على الاستسلام والكف عن البحث، وفي لحظة مذهلة في حياته سقطت بين يديه بالصدفة بينما كان يقلب بعض القصصات الصغيرة، لفت نظره ملحوظة صغيرة مطبوعة على تكس بكلمات مبعثرة عن اختفاء السياسي هاني الجابر وعودته للبيت بعد غياب ثمان وأربعين ساعة.

- هاني الجابر.

همس لنفسه عندما ابصر تلك القصاصة ملقاة بين كم هائل من الاوراق. أخذ يقرأ بسرعة الكلمات القليلة المخطوطة، ثم عاد وقرأ من جديد.

للاهمية...

اختفى السياسي الحزبي هاني الجابر لمدة ثمان وأربعين ساعة لم يعرف أحد مكان اختفائه.

ثم أخذ يبحث بين الاوراق من جديد، التقطت عيناه قصاصة جديدة.

وردت إشارة تقول انه تم توقيف السياسي هاني الجابر في مخفر البلد العليا بتهمة السطو وبعد التحقيق معه تم الإفراج عنه دون كفالة.

كانت هناك خرطشات وعلامات استفهام كتبت بقلم رصاص.

وكأنه وجد الحل لكل ما يريد. على الرغم من أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يعرف كيف سيستفيد من هذا الامر، إلا أنه

كان يستشعر في داخله راحة لذيذة جاءت بعد التعب. فهو يعرف هاني تمام المعرفة عايشه فترة طويلة إبان حركات العصيان التي اجتازت البلاد حيث كان يتكرر اسمع دوما في التقارير التي ترد يوميا عن الاجتماعات الحزبية والاهلية.

سحب الورقة من بين مجموع الاوراق، ثناها بعناية وأناقة ثم دسها في جيبه. عاد يعبث بالاوراق التي أمامه وكأنه نسي أمر هاني الجابر تماما. بعد لحظة استرخاء على مقعده لدقائق لم يدر عددها، رفع سماعة الهاتف اتصل برقم ما، جاءه صوت زوجته التي كانت مشغولة وقتها بتهديب أظافرها، هتف دون مقدمات:-

- ما رأيك لو تناولنا العشاء خارج البيت؟

كانت تلك واحدة من عاداته الجميلة عندما يهتز في داخله ذلك الشيطان العجيب الذي يبعده عن الكون ويغرقه في نفسه. لم يكن ليدعو زوجته للعشاء إلا لاستكمال برنامج الاحتفالي، فبعد ان يذهب الى أفخم مطاعم المدينة، وبعد أن يتلقاه العاملون بترحاب مبالغ به. يطلب عشاء يكون بالعادة من أجود ما يقدم هناك يطلب زجاجة نبيذ أحمر معتق يحتسيها كلها إلا كأسا صغيرة تشريها زوجته المتلذذة وقتها بإشاراته وتلميحاته الداعرة عن الجنس والرجال وما شاهد وما سمع حتى ينتهيا من العشاء.. ثم يعودا الى البيت. تكون زوجته قد داعبتها نشوة الرغبة، ما أن يدخلها حتى يقوم بشدها نحوه ثم يبدأ يخلع ملابسها حتى إذا بدا له جسدها الابيض الممتلئ لا تغطيه غير قطعتين واحدة للصدر وأخرى للأسفل، أرسل ذراعيه بقوة إلى بدنها ثم بكفين قاسيتين يأخذ بتمزيق القطع الحريرية الشفافة بعنف يثير



في نفسه شهوة مرعبه، عندما ينظر إلى بدنها. وقد أوشكت أن تحزه القطع المشدودة عليه فيصير أحمر تكاد تنفر منه الدماء، ولا ينقذها من ذلك إلا تمزق اللباس بين يديه يلقي القطع جانبا، ثم ينغمس في البدن المستسلم له بخضوع تام.

\* \* \*

تنبهت الزوجة إلى غيابه، كان الليل قد غطى مساحة الفضاء،  
والإنهاك قد اخذ من بدنها قوته، أحست حرارة تحت إبطها. مدت يدها  
تحسست بدنها، لسعتها ملوحة عرقها، لامست دبقا خمنت انه دمها.

مدت يدها أشعلت الضوء القريب منها كانت الغرفة هادئة. نظرت  
إلى حيث الألم أبصرت خطأ أحمر حز إبطها وزحف حتى صدرها  
حيث اختفى. أغمضت عينيها وسبحت في لحظة راحة قصيرة بالكاد  
التقطتها.

كان عرقها ما يزال يسح تحت عنقها وأذنيها. فكرت بالنهوض  
لاخذ حمام دافئ لكنها تراخت امام هجمة الإعياء، حاولت ان تتذكر تلك  
التفاصيل الصغيرة التي عاشها معه لكنها خجلت منها، تذكرت بأنها  
قرأت في كتاب ما عن خصوصية تلك اللحظات وتلك العلاقة.. وكل ما  
خطر في بالها انذاك أنها لحظات ممتعة وكانت تود استمرارها لكنها  
الآن تجهد روحها محاولة طرد الألفاظ السوقية التي كان يتفوه بها وهو  
يمارس معها ذلك الفعل استدارت وفتحت عينيها على اتساعها حتى  
الفت العتمة. هذا هو طلعت الشخصية الأخرى، كانت تعرفه منذ سنى  
الجامعة ولم يكن يلفت نظرها إلا بحدته الشعرية الرائعة عندما كان  
يلتقيها مجتمعه مع الطلاب في الكافتيريا. كان ضعيفا يرتدي ملابس  
مهملة، لكن كانت تلوح لها جاذبية خاصة تشدها إليه، لم تفكر ولو  
للحظة واحدة أن تكون له.

لقد تذكرت أنها كانت كلما نظرت إلى وجهه ذي السمرة الخفيفة  
كأنها بن محمص لتوه تود ان تقبله، وكانت لا تجد مانعا من أن تتحول

الى حديث ثنائي معه، يسحبها إليه رغم أن الطلاب كلهم يجتمعون على مسألة معنية، لم تكن معينة بما هو عليه أو كيف يعيش لكنها كانت واثقة من أنه يعيش تحت خط الصفر من الفقر، فلقد لمحت في إحدى المرات نعله عندما رفع رجله ليسندها على أختها دون انتباه منه إلى أن النعل مثقوب وكان صاحبه يمشى على التراب مباشرة دون حاجز، كما أن ملابسه التي أصابها وهج غريب كانت نظيفة مرتبة دائما إلا أنها عرفت فيها بعد بأنه لا يملك غير أن يبقى هذه الملابس تحت مرتبة النوم طوال الليل لتحافظ على كسراتها ثابتة.

تخرج " طلعت " من الجامعة، ودعها بحرارة وكعادته استطاع أن يجرها إلى حديث خاص بهما قال لها خلاله بأنه سيعود ثانيه من أجلها فقط.

لم يعطها فرصة للتعليق على ما يقوله، ورغم أنها ظلت في ذلك اليوم تتسائل عن معنى ذلك إلا أنها في اليوم التالي نسيتة تماما، وحتى أنها لم تذكر هذا الشاعر الجذاب الذي اختفى فجأة مرة واحدة، ولم يعد يذكره أحد من أصدقاء الكافتيريا.

حتى عاد ثانية.

رجع طلعت وقد تغير كل شئ فيه ملابسه الضيقة ذات الوهج الغريب اختفت وحل مكانها بدلة جديدة وربطة عنق كانت تحاصر رقبتة بعنف. كما أن جسمه النحيل استطاع أن يكتسب بعض الامتلاء فبدأ رجلا آخر غريبا لم تعرفه (سمر) من قبل.

وهذا ما صارحته به عندما مشيت معه بعيدا عن ضجيج الكافتيريا في الطريق المتجه الى كليات الجامعة وددت أن تقول له بأنه كان شيئا آخر مختلف، وأن بساطته القديمة كانت تحمل فيها روحا حلوة هي التي كانت تشدها إليه.

وقبل أن تموت اللحظة التي انتظرها اشهرًا طويلة ، وقف تحت ظل إحدى الشجرات وقال:

- يجب أن تسمعيني حتى النهاية.

كانت تود أن تسمعه، شعرت في داخلها شيئًا غريبًا يدفعها لأن تظل صامتة، تراقب وقفته وحركاته، ودوران فمه بالكلمات.

- منذ سنين وأنا وأحبك- كان جرئًا كما عرفته، وقحا بنظرات عينيه الثابتة نحوها- ومن أجلك فقط استطعت أن أكون، الطريق ما يزال طويلًا أمامي لكن بالتأكيد سأصير مؤهلاً لك.

تبادر إلى ذهنها في تلك الساعة ولمرة واحدة في حياتها أن ( طلعت ) ينظر إليها كغنيمة يجب أن يقبضها نظير حياته القاسية التي عاشها، لم تعرف أبدا كيف فكرت بهذا الأمر أو حتى بهذه الصورة، لكنها أحست أنه يطمح لاسمها ولثراء أسرتها فقط ولكن وهو يهتف بذلك الكم الهائل من حالات الشعر اسقط في يدها، وطردت ذلك الهاجس الغريب الذي احسته مرة واحدة في حياتها فقط هي تلك الساعة، ولم تجد ما يمكن ان يدفعها لان تسيء الظن به فهو الآن رجل آخر مختلف والأشهر القليلة التي غاب بها أعادته متغيرا بهذه الحال تعنى أنه

خارق وجبار، وقادر على أن يكون أمرا آخر عظيما ولأنه أعطاهما الثقة بأنها وراء كل هذا التطور في حياته فقد أحست شعورا بالفخر وبعظمة الخلق التي تمتلكها.

- فكرت ماذا تريد فتاة مثلى من الحياة غير ذلك؟

لم تكن لتهتم بأية مسألة تخطر في الكون، لم تكن لتعلم أنها تعيش في بلاد تقتلها الحروب والجوع، ولم تكن لتصدق أنه في الحي الشرقي من المدينة التي ولدت فيها، وعاشت فيها وشهدت فرحا دائما فيها، أن هناك أناسا يموتون من الحزن.

في تلك اللحظة وددت أن تلقى بنفسها على " طلعت " وددت أن تطلب منه أن يحضنها ويشدها إلى عظام صدره، تلعثت وأحست غيبوبة لذيذة. مادت بها الارض وأوشكت ان تسقط.

منذ تلك اللحظة وهو يملكها، يخلقها كيفما يريد، حراك فيها الحياة بصورة جديدة، فتق بدنها عن أنثى متوحشة. فبعد اللقاء الأول أخذها لترى بيته. لم يكن هناك سوى غرفتين مهملتين أقصى طريق جبليه وعرة، وأمه وأخواته وبساط مغزول من وبر الماعز ووسادتين أو ثلاث نفرت منها أعواد القش الجاف، وصندوق عرس عتيق، وعلى الجدار صورة للرئيس ورشاش بور سعيد علق يحرص وعناية. عندما رأتها أمه اهتزت وحارت ماذا تفعل؟ هل تزغرد أو تضم هذه الفلة البيضاء التي حلت بيتها إلى صدرها. لم تفعل ايا من الأمرين فقد كانت تخشى أن تصدها هذه المرأة النظيفة التي بادرت الى مد يدها بالسلام فتلقفتها يد الأم الخشنة بحذر.

كان هناك احتفال غير معلن بقدمها، ولكنها كانت تصطحب بأفكار صعبة لم تستطع ضبطها أو تهذيب حركتها داخل رأسها بحد أدنى.

طالت جلستها، شربت الشاي الذي بدا عكرا داخل الكأس المبتلة من ماء الغسل. أخرجت الأم من الصندوق ثوبا مطرزا مدته لسمر التي استنشقت رائحة الفونيك النفاذة، قالت، هذا ثوب عرسي، كنت "أنذره" لعروض طلعت.

والآن الأم تفهم بحدسها البدوي الإيماءة والحركة فلقد استدركت قائله:

- كنا نحسب زمان أن الدنيا لن تتقدم، لكنها تقدمت وتغيرت كثيرا.

في الليل أصيبت يدا سمر بحكه واحمرار. لم يتردد أبوها بالاتصال بالطبيب الذي عاينها وقرر أنها تعاني من الحساسية، أعطاه كريما هدا الحكمة وجعلها تنام، بعد أيام كان جلد يديها قد بدأ يتقشر وصار لها جلد جديد.

صارت تدخل عوالمه، اناسه الذي يعايشهم، أفكاره المتناقضة، روحه الشاعرية أحيانا، بدنه المتمرد القاسي، أحلامه الغربية التي تنقله إلى بيت مريح وزوجة واولاد والخبز كفاف اليوم، وبين التحكم والسلطة واستعباد الناس.

أفزعها عندما صرح ذات مرة بأنه يحب بيته القادم ملء جوارحه، ولكنه يخاف من الجوع قال لها: إذا جاء يوم وجاع فيه أولادى ولم أجد ما أطعمهم سأخرج الى الناس في الشوارع

اقتلهم بالمدفع الرشاش الصغير المعلق على جدار البيت قبل أن اقتل نفسي.

كيف يفكر؟ لم تدر كيف خطر لها أن تتسائل في سرها، وهل الناس الذين سيموتون مسؤولون عن جوع أطفاله، وددت أن تقول له أنه سيقتل الأبرياء إذا جاع أولاده، لكن شيئاً ما ردعها عن ذلك قالت: مالى وأفكاره التي لا تعدو غير شئ من جنونه الشعري.

وعندما استطاع أن يلتقطها بعيداً عن أعين الآخرين، أشعلها بكلماته السحرية التي كانت تنساب في أذنها ثم تنتشر في بدنها دفناً ورغبة عارمة. وقتها أخذت يده تمتد بعيداً عن كفها التي ظل ممسكاً بها لتخترق أماكن مهجورة مل يفلحها أدمى بعد، لن تنسى " سمر " أي نشوه تلك التي حطت عليها عندما قبض على صدرها المتكور الصغير وكيف تفتقت حملتها في صدرها كأنها حبة كرز فرت من طوق الزهرة كالبرق.

اسر لها فيما بعد أنها انطلقت في كفه مثل الرصاصة.

\* \* \*

(3)

عشرات الأوراق كانت ممزقة وملقاه في السلة البعيدة عن مكتبة أو بجوارها، بعضها كوم بعنف داخل قبضته والقى دون هدى، والبعض ترك وقد تركت فوقه خرطشات مبهمة، أسماء، تواريخ، أشخاص. حتى أنه رسم على أحدها بخطوط عامودية رجلا يمد يده بمسدس نحو خيال صغير كتب تحته هاني الجابر.

على طرف المكتب تركت ورقتان أو ثلاث بصورة مرتبة كانت مليئة بالأفكار والملاحظات المتداخلة.

((هاني الجابر))

يتفق على أنه أضحى يشكل وجودا عظيما بين الناس، وأنه مقبول لحد يفترض أن يتوقف عنده.

لقد أعطى للاتجاه نفسا جديدا ووقعا في الشارع العام. الاتجاه صار ينكشف للناس محال انتهازية ومرفوضة ولكن هذا الرجل يغير هذه الصورة.

إن الضغط النفسي الذي يمر به الناس يدفعها للبحث عن قائد جديد هذا سيؤثر على قيادتنا العليا وعلى وجود الزعيم على المدى البعيد.

الوثائق التي ينشرها تباعا وتعليقاته وتلميحاته عليها أضحت المادة الأولى لقراء الصحف إن تشويه صورة هذا الشخص ستحقق أكثر من فائدة.



التأثير الخاص على الناس. رسم تحت هذه العبارة خطين وقفل برسم نجمة ثم في قاع الصفحة رسمت نجمة وأشير قربها.

( افتقاد الناس للإيمان مؤهل لأن يساعد في تشويه صورته).

عندما كتب طلعت هذه العبارة أحس بأنها لن تفي بالغرض الحقيقي والدلالة التي يسعى لتوضيحها كان يفكر بأن الناس مستعدون لفقدان الإيمان إن وجدوا ما يدفعهم لذلك فحالة اليأس التي يعانون منها كفيلة بالقضاء على الأحلام بعودة الأبطال القادة الأحرار من جديد.

كان يعي الفكرة تماما، وكان موقنا بأنهم سيفهمون ما يعنى عندما يجتمعون في الدائرة لمناقشتها وإعطائه الضوء الأخضر للتنفيذ.

أشار في الصفحة الثانية بأن القضاء على هذا الرمز سيؤدي بالتأكيد إلى خلق البلابل النزاعات داخل الحزب وسيؤدي ذلك في أقرب فرصه الى الانشقاق.

على الصفحة الثالثة كتب، أهداف أخرى، ثم بعيدا عنها أدرج مجموعة من الملاحظات:

أشغال الناس،

الشديد على الصحافة،

الدخول في مفاوضات خاصة ومساومة بعض الدول التي ستهب للدفاع عنه.

عند البند الثالث خط بين قوسين.

- يدرس بعناية.

في اليوم الثاني قدم ورقة صغيرة للمسؤول كما تقضى الإجراءات. قلبها المسؤول بيده، كانت تحوى اقتراحا كثفه طلعت الأسمر بكلمات قليلة كانت نتاجا لعمل الليل الطويل كله.

لقى المسؤول الورقة جانبا دون أن ينطق بحرف بعد أن قرأها كما يبدو أكثر من مرة بدا ساهما يبحث عن مدخل للحوار، لكنه كان مترددا، وقف ودار حول المكتب، نظر الى سقف الغرفة متأملا.

فكر بأولئك الذين سيقومون بمعارضة الاقتراح وحدد العوائق التي سيضعونها وصار يبحث عن الإجابات التي يفترض بها أن تكون قاطعة وحاسمة.

- هذه هي عادة " طلعت الأسمر".

يفاجئ الآخرين. يقلب الأمور رأسا على عقب، ينبش تحت الرماد؟ ما الذي دفعه للتفكير " بهاني الجابر"؟

إن كل ما تقدم به معقول ويستحق الدرس، لقد كثر النقاش في الآونة الأخيرة عن الدور الذي يلعبه " الجابر" كما أنه تمادى بكشف الكثير من الأوراق التي كانت مخيفة في الأدرج والتي يشك بأنه قد حصل عليها من دولة معادية.

عندما طالت لحظة تأمل المسؤول، تملل طلعت، تنحنح، ثم قال:

- إذا رأيتم سعادتم أن الأمر صعب ننسأه سيدي.

نظر المسؤول في عينيه بحده، وكأنه يبحث عن أمر يعرف بقراراته ما يكون لكنه يرنو إلى إبرازه علنا حتى يستريح من ممارسة لعبة القط والفأر التي ملها. أحيانا كثيرة يكون هو القط لكنه في أحيان أخرى يشعر أنه فأر ضعيف يائس، وأن طلعت لا يعدو غير قط شرس يقوده إلى زوايا يجد أن لا فرار منها وأنها الملاذ الأخيرة.

- يبدو أنك أحسنت اللعب كعادتك؟

قال وهو يرجع لمكتبه.

ابتسم طلعت بخبث واضح، ثم قال بصوت خافت:

- أتمنى أن أتلقى من سعادتك الإشارة للبدء.  
- وإلى أين ستمضى بالأمر يا طلعت؟ المسألة جادة جدا الآن.

سأل المسؤول بعد لحظة صمت.

فقط اعطنى الأمر وساقوده الى المشنقة.

هتف طلعت بفرح وهو يشير بيده كأنه يسحب شعرة من كوم عجيب.

ورغم أن المسؤول لم تهزه النتائج الحادة التي يمكن أن يصل إليها الأمر، إلا أنه فوجئ بالنتيجة التي يطمح إليها هذا الضابط المتحمس، كانت ترتسم في ذهنه حالات مختلفة في تلك الساعة، أقربها إليه إحساسه كم هو حقير هذا الرجل الذي يجلس أمامه الآن. كان يقارن بين ما أكتسبه من خبرات سنى عمله الطويلة، وبين ما توج فيه هذا العمر

الطويل في هذه اللحظة بالذات من هذا المتحمس الوغد كما يجب أن يسميه كلما مرت بين يديه تقاريره ونشاطاته.

همس لنفسه:

- يبدو أن زمانه قد أزف.

قرر أن يوافق، وأن يعطي الإشارة للبدء ولكنه لم يكن متحمسا بمثل حماس صديقه الضابط الصغير.

قال:

لن تصل الى الإعدام يا طلعت؟

نظر طلعت مستفسرا، أكمل المسؤول:-

لكن ستصل الى أمور أكثر جدوى كما اعتقد.

ابداً بالتنفيذ .

رفع يده وكأنه يطلب منه أن يتعجل بالانسحاب من أمامه، وكان به رغبة في أن ينفرد بذاته لحظة. وهذا ما فعله بالذات فلقد فكر عندما سمع صوت إغلاق الباب يأتي من وراء طلعت المختفى: إن هذا الرجل يسير إلى هدفه بسرعة عجيبة.

كانت أيام التقاعد التي بدأت تلقى بظلالها فوق مكتبة قد حملته على التروى والهدوء. نظر إلى العمر وجد أنه يمضى سريعا، وأن دورة الحياة الآن بدأت تبعده لتأتي بغيره، ها هو، هذا الصبي الصغير الحافى الذي كان يتلقى بضعة دنائير نظير تقاريره الهزيلة والتي كانت

الدائرة تعرف أضعافها لكنها كانت تريد أن تبقى مشدودا إليها، ها هو يتحول إلى مخلوق آخر، يشتعل ذكاء وأنانية. فكر بأن قرار الموافقة على خطة "طلعت" كان مصيبا، فهذا الضئيل لن ينسى الموضوع أبدا. إن هو رفض فإن طلعت سينتقل به بأية طريقه إلى الآخرين وسيصيب هدفين معا هاني الجابر وهو.

قرر أن يكف عن التفكير عندما شعر صداعا يتسلل الى رأسه وسحب جاكيتته المعلقة خلف المقعد صرخ:

- تفو.

\* \* \*

## الفصل الرابع

# القضية

(1)

في الوقت الذي دخلت فيه السكرتيرة لتعلم رشوان فكرى بأن هناك رجلين يودان مقابلته، كانت قد أنهت داينا مكالمة هاتفية معه بعد أن احتد النقاش بينهما بخصوص فاطمة التي لم تعد صغيرة والتي صارت ترتدى أزياء غريبة، وتحضر أصدقاء لها إلى البيت دون استئذان حتى كأنها كانت تلتقطهم من الطريق.

ولم تكن ديانا قادرة على كبح جماح ابنتها التي كانت تعيش صراعا مريرا بين رغباتها وحياتها، حتى أن علاقتها بأخواتها أو شكت أن تصوير معدومة فلم يعودوا يجلسون معا، يتحادثون معا أو حتى يتعاركون، وبقدرة قادر صارت فاطمة العربية تانيا.

كالعادة، وعندما أخبرته السكرتيرة أن هناك رجلين بانتظاره، حاول ان يستعيد هدوءه وهذا ما نجح به منذ الوهلة الأولى، سأل عنم يكونان.

قالت وهي تزم شفتها:

- إنها لا تعرف! انهم عرب يبدو أنهم أقارب لك.

لم يفاجأ رشوان بملاحظة السكرتيرة لكنه تشوق لأن يرى هذين الضيفين الذين يشبهانه. لم يترك للسكرتيرة الفرصة لأن تدعوها للدخول، ترك مكتبة مسرعا واشرع الباب وكأنه ود

تلك اللحظة أن يلتقى شيئا من الوطن يعيد إليه الحنين الذي كاد يفقده.

عندما اشرع الباب أبصرهما. رجلان يحملان سمرة الوطن لكنها تلك السمرة التي صنعتها الصحراء فبدت كأنها مؤقتة جاءت مسرعة وتود أن تختفي، رغم أناقتها الظاهرة بالملابس التي يبدو أنها قد حيكت في ارقى دور الأزياء، إلا أنها ظلا يحملان تعبيراً آخر خفياً لم يكن رشوان ليفهمه للوهلة الأولى.

ابتسما له عندما سمعا صوت الباب يفتح وقد تركا حواراً هامساً بينهما. وقفا معا وكأنهما يعرفانه منذ سنين، أما هو فقد حاول جاهداً أن يتذكر إن كان قد رآهما من قبل أو أنه يعرفهما أو يعرف واحداً منهما، إلا أنه فشل. عزا ذلك إلى طول غربته عن الوطن وإلى المكالمات الهاتفية القاسية التي كانت مع ديانا قبل لحظات فقد دفعته لأن يشك بأنه قد نسيها.

قال أهلا باللغة السويدية الخالصة، الأمر الذي دفعهما للضحك وهما يقفان ليسلما عليه قال أحدهما وقد بدا أنه أكبر سنا:-

- بالعربية الله يخليك يا دكتور.

عاد ورحب بهما، فسح لهما الطريق، دخلا إلى مكتبه قدامه، ترك فسحه للسكرتيرة لكي تخرج ثم لحق بهما.

لا وقت لهذا المتأنى للتفكير .

عندما أغلق الباب خلفه، قال الرجل الأول وكأنه يواصل حديثا شيقا قطع رغما عنه.

- لقد أتعبتنا هذه اللغة حتى أن الأستاذ أحمد عندما طلب في المطعم طبق بيض بأيس كريم.

قاطعه الدكتور رشوان مرحبا، وهو يسأل بعينيه أن يعرفا عن نفسيهما.

قال:

- أرى أنكما تعرفاني.

هز الاثنان رأسيهما بحركة إليه مضبوطة.



- إذا هل لي أن أتعرف إليكما. تابع بلهجة تخلو من اللياقة وتبدو أقرب الى النمط الغربي.

أشار بيده، فتح الرجل الثاني الذي دعى بأحمد منذ لحظات حقيبة دبلوماسية كانت ممدودة فوق فخذيّة، سحب منها جوازي سفر ناولها للرجل الاول الذي مدهما بدوره لرشوان.

- لنحسم الأمر.

قال وهو يضحك أنا طلعت الأسمر مدع عام والسيد / أحمد مساعدي.

عندما تناول رشوان جوازي السفر، أصيب بحالة ارتباك فالرجلان ليسا من بلده أصلا كما دلت عليهما لهجة الأول عندما تكلم أول مرة، حاول أن يمعن رأسه بالتفكير بالاحتمالات التي انهمرت عليه فجأة دون سابق إنذار، ليس أمامه أية معطيات يمكن أن يعتمد عليها في التحليل والدرس. رجلاّن عربيان، قدما هويتهما طواعية أحدهما مدع عام ثم ماذا.. توقف فجأة وحمل كل ما يخطر في ذهنه نحو زاوية جديدة.

لم لا يكون كل ذلك مزيفا؟

سأل نفسه. ثم بهدوء حسم الرأي وقال وكأنه يريد هما أن ينهيا هذا الغموض.

- وماذا؟

لا شيء. قال طلعت وهو يتناول الجوازين مجددا من يده ويعيدهما الى أحمد الذي أعادهما الى الحقيبة ثانية، أغلقها وأبقاها كما هي ممدودة فوق فخذه.

قال طلعت.

- كنا نود ان نتعارف أكثر.

- أرجوك أنا لا احتمل الانتظار هات ما عندك وبعدها سنجد الوقت للتعارف.

حسم رشوان بكلمات سريعة يخالطها شيء من الاضطراب.

قال طلعت ثم أشار لمساعدته أن يتكلم.

- حسنا يا دكتور، كما تحب.

وللمرة الأولى سمع صوت الرجل الصغير الثاني، بدأ واثقا مما سيقوله ومستعدا له بصورة جيدة، أنزل الحقيبة عن فخذه وبدأ:-

- نحن نعرفك تماما يا دكتور، وهذه المعرفة ليست قائمة على أمر سلبي لا قدر الله، إنما معرفة تدل على سمعتك الادبية والعلمية والوطنية الجيدة، ونحن إذا حضرنا لمقابلتك دون سابق إنذار لم نرد أن نشوش عليك وخاصة أنا نعلم كما تحب الوضوح، لذا فأنا نرجو العذر على دخولنا المباشر هذا. إن إيماننا بك وبقوميتك العربية التي لم تزعزعها سنوات الاغتراب هما الدافع الذي جعلنا نتوجه لأداء واجب وطني تخدم فيه أمتك العربية بصورة عامة وتخدمنا نحن كدولة بصورة خاصة، وهذا أمر لا نريد أن نخفيه عنك أيضا.

وقبل أن يدع أية فرصة لرشوان للمقاطعة أو الحديث، أكمل:

كما نود أن نعلم سعادتك بأن لك كل الحق برفض تقديم المساعدة، وأن قدومنا إلى المكتب هنا لن يثير أية ريبة، كما أننا لم نرغب بالتوجه إلى بيتك حتى لا ندع العائلة الكريمة تستريب من حضورنا، أنت تعرف النساء وأسئلتهن التي لا تنتهى. لا سيما وأنا نرغب بأن يكون الأمر على درجة عالية من السرية .

لم يحاول رشوان وهو يستمع أن يخفى الخوف الذي صار يغزوه. فأية خدمة هذه التي يمكن أن يقدمها أمثاله للوطن وللأمة كلها كما يقول هذا الرجل الذي يبدو أنه لم يتخرج من معهد قضائي بل أن في صوته نبرة غريبة عن الكتب والقوانين.

فكر رشوان بعمق ثم قرر إنهما لا بد من العسكر، فهذه الجهة وهذه الحركة الانضباطية لا تكون إلا للعسكر، أجل بالتأكيد هما من العسكر، حتى لونهما، إنه اللون الذي تصنعه ساعات الدوران في الشمس للتدريب.

كان الرجل ما زال يواصل مقدمته الطويلة التي وضعت رشوان في دوامه تنقله بين اتجاهين بسرعة مربكة. ركز مسامعه، كانت الديباجة المحفوظة قد أوشكت على الانتهاء. جاء صوت الرجل من جديد:

لقد استطاعت أجهزتنا في الفترة الأخيرة الاهتداء إلى مجموعة تخريبية، وهذه المجموعة لها صلات مباشرة بالمخابرات الإسرائيلية.

وحتى يدع الرجل الفرصة لرشوان لاستيعاب ما قال استأذن بأدب جم أن يخرج سيجارة. فتح علبة المارلبورو التي استلها من جيبه برشاقة. مدها لرشوان الذي كان ساهما فيما يسمع، رفض العرض، مدها نحو طلعت الذي سحب واحدة وبقي جالسا مكانه لا يتحرك وكأنه كان يراقب كل حركة تنم عن رشوان، ويرسمها في ذاكرة هي أشبه بكاميرا حساسه للغاية، أشعل أحمد له السيجارة، ورجع لموقعة، أشعل سيجارته وسحب نفسا عميقا وكان إشارة أتت اليه ليتابع:

- انت تعرف يا دكتور أن إسرائيل الآن قد بدأت بفقدان مصداقيتها أمام العالم، فالتجارب الاخيرة صارت تكشف أننا لسنا إرهابيين، وانا أمه متحضرة وذات تاريخ عريق وعظيم ونظرا لحالة اللا حرب واللا سلم القائمة بيننا منذ فترة طويلة فإن القلاقل والفتن تتفجر الآن بين الشعب اليهودي في إسرائيل. فهم قوميات مختلفة لا يوحدهم شئ سوى الحرب أو وجود خطر من الخارج يهددهم. وأن طول النفس الذي صرنا نتمتع به كعرب أدى إلى الخلل كما قلت لك داخليا عندهم هناك وعالميا.

لذا فإن إسرائيل تسعى لخلق البلابل والمؤامرات، تريد تحريك هذا الركود.

أوشك رشوان أن ينفجر أمام هذه المحاضرة المملة والتي تخرج من فم الرجل بكلمات مرسومة، ملقنه، لكن خوفه من القادم دفعه للصمت والانتظار حتى النهاية، المهمة، الغامضة، التي لم تلح منها أية علامة تشير إلى دلالتها.

وقد اختارت إسرائيل هدفها أخيرا. تابع أحمد.

لقد اختارت بلدنا. استطاعت أن تشتري بعض الناس ضعاف الإيمان، والكافرين بالقومية وبالعروبة. وأخيرا تكشف لنا كل شئ وبعد مجهود يعلم الله مداه من أجل الوصول إلى الحقيقة.

باختصار يا دكتور رشوان، هو رجل ظاهره يبدو نظيفا، لكنه من الداخل مغموس بالخيانة والانحطاط والرخص أمام مغريات المادة. رجل يدعى الوطنية وقيادة أحد الأحزاب غير العربية وغير المسلمة أيضا. صاروا يزودونه بوثائق

ومستندات مزوره، وأنت تعرف قدرة هذا الكيان على الخلق والتزوير وصار صاحبنا ينغمس باللعبة بسهولة غريبة، حاولنا أكثر من مرة أن نشير له أن يبتعد أو يتنحى. لكنه استمر في غيه انتفخت فيه نزعة العظمة حتى ضاق بنا ولم نجد غير تكثيف الرقابة عليه حتى اكتشفنا أنه عميل خسيس لصالح العدو الإسرائيلي. واستطعنا ضبط أحد العملاء الذي كان يزوده بالوثائق وبمبالغ كبيرة من الدولارات لكن هذا العميل وقبل أن نبدأ بفتح ملف القضية انتحر.

صمت أشعل سيجارة ثانية.

- كان هو المفتاح الوحيد لنا لتعرية هذا الشخص أمام الأمة.

سحب نفسا عميقا، اسند ظهره إلى المقعد، كان ينتظر أن يتكلم رشوان لكن هذا الأخير بقى صامتا لا ينطق وهو يتابع هذا الشريط الطويل.

- دكتور، نحن بحاجة لمن يساعدنا في كشف هذا الخائن.

استطاع رشوان أن يفهم بأنه المقصود، لم ينبس بأية كلمة وانتظر  
المزيد المخيف.

ودون أن ينتظر رأيا أكمل:

- نريدك للشهادة فقط.

- بماذا؟

نطق رشوان وكأنه يخرج صوته من بئر عميق.

- الرجل، العميل يشبهك إلى حد كبير، قال:

ولن يشك أحد بالفرق بينكما ولا حتى الشخص المعنى، هي بعض  
الحركات في الملابس وتصبح صورة منه.

غطس رشوان بمقعده، وقد اهتز أمام هول المهمة التي القيت عليه،  
تحول لونها إلى الأصفر وبدت دقات قلبه تعلو حتى صار يسمعها  
بأذنيه:

- أرجوك أن تهدأ سأشرح لك كل شئ المسألة اسهل مما تتصور، رحلة  
لمدة يومين أو ثلاثة إلى بلادنا يتكون خلالها ضيفا عزيزا على  
الحكومة، ستدعى للشهادة بعد أن نكون قد هيأنا لكل شئ وبعدها تعود  
بأول طائرة إلى هناء، أعدك بشرفي بأنها ستكون نزهة ليس إلا ، أجازة  
يا دكتور ألم تفنقد الوطن وأناسه وهواءه؟

تابع أحمد:

- ستقضى بيننا أياما لن ننساها.

هبط الصمت بجناحين عظيمين فوق رشوان، أخدم فيه كل شئ  
حاول أن يخفيه، لكن بقايا نفحات أنفاسه ظلت تشير إلى أنه ما يزال  
هنا، لم يرحل.

( إيه يا وطن، هذه هداياك )

طال الهدوء، لم يتحرك أحد منهم. طلعت ما زال صامتا كما كان  
منذ ابتداء الدرس، وأحمد التقط أنفاسا وكف عن الحركة وحتى عن  
إشعال السجائر، ورشوان هبط في مقعده حتى أوشك أن يختفي كانوا  
كلهم ينتظرون كلماته، قراره حتى هو، فلقد كان ينتظر القرار الذي  
سيخرج منه. ورغم أنه يعرف إجابة السؤال الذي دار في ذهنه وقتها إلا  
أنه نطق بضعف.

- هل لي الخيار؟

نظر الرجلان نحو بعضهما برهة قصيرة من الوقت، لم ينطقا  
بحرف، ورغم أن رشوان كان يعلم تمام أن القرار لن يكون له إلا أنه  
أعاد سؤاله وكأنه يسأله لأول مرة:

- هل لي حق الاختيار كما قلتم؟

وبعد لحظة جاءه الجواب من طلعت الأسمر قاطعا وكأنه حكم لن  
يقبل الاستئناف.

- للأسف لا .

\* \* \*

(2)

بيدهم كل الاوراق تاريخه غير المشرف في الوطن، بدءا من زواجه امرأة أجنبية مرورا بعدم تطوعه للدفاع عن ترابه، ثم هربه منه.

وأسرته التي يمكن أن تكون طرفا في المساومة. فالرجلان اللذان ذكرا مرارا زوجته وأولاده وابنته فاطمة لم يكونا يقصدان بالتأكيد الإشارة له بأنهم كلهم طوع الأمر، وأنهم عرضة لأي حادث قد يقع لهم قضاء وقدر.

- نحن بحاجة إليك يا رشوان ويجب أن تلبى هذه الحاجة.

هذه هي كلمات طلعت الأسمر التي ظلت تتردد في رأسه الوقت كله، قلب المسألة حاول أن يبحث في المخاطر التي يمكن أن تصيبه وجد أنها لا تعدو شيئا غير الرهبة من تجربة جديدة غريبة، وهذا الخوف من الأشياء غير المصرح بها. ماذا يخفون وراءهم؟

لو أنهم يرغبون بأخذه قصرا من هنا لما توانوا، ولن يعدموا الوسيلة. لكنهم لأمر ما يريدونه طواعية، أن يكون تحت الأمر ليصبغوا كل شئ بصبغة طبيعية. فالإجبار لن يفيدهم يريدون شخصا قادرا على



ضبط النفس والتحكم بمشاعره أو أن يكون معدمهما. وإلا كيف سيواجه رجلا لم يره طوال عمره ثم يشير إلى أنه قد التقاه وأعطاه وثنائق ومبالغ من المال. ماذا ستكون ردة فعل هذا الرجل؟ هل سيصرخ به أم سيهدده؟ قال

ان التخفي سيساعده، لكن عاد وفكر إلى أي حد إذا كانت إسرائيل هي غريمه في هذه المسألة؟

كان يمشى قرب البحيرة المعتمة الراكدة أمام هدأة الليل وبرودته. في رأسه تصطبخب الاسئلة: أي عمر من التعب هذا الذي يعيش؟ وما الذي يجب أن يفعله، ثم لمن يتحدث لمن يبيت أحزانه المثقلة على نفسه. لا أحد سيفهمه، ديانا لن تسكت، ستفجر كل قهرها إن هو أعلمها بذلك ستطلب منه الفرار ترك هذه البلاد وترك العرب كلهم، ستحدثه عن إمكانية الحصول على الجنسية البريطانية وعن الحصانة التي سيتمتع بها عندما يحدث ذلك.

- ديانا لن تفكر بهدوء قد تخرب كل شئ.

إذا ما العمل؟ تساءل للمرة الألف.

ثم وكأنها لحظة سلام نزلت على نفسه فكر: ماذا يضير أن أفعل ما هو مطلوب مني، أسافر وأشهد ضد هذا الرجل ثم أرجع إلى هنا وكان شيئاً لم يكن، إن الأمر لا يحتمل هذا التعقيد. فالجماعة لا بد وأنهم قد تعبوا وهو يبحثون عن يساعدهم بالإيقاع بهذا الرجل وعندما اهدوا إلي لم يترددوا.

لكن كيف حدث واهتدوا إلي أنا دون خلق الله جميعا؟ قال بصوت مرتفع.

- يا الله.

صرخ لم يسمعه أحد .

مد أصابعه تتخلل شعر رأسه.

- ماذا لو كان هذا الرجل برئيا؟

\* \* \*

# الفصل الخامس

## الرحلة

(1)

سافر طلعت أولاً قال أنه سيحضر كل شئ هناك كسبا للوقت، وظل مساعده أحمد مقيماً في أحد الفنادق البعيدة عن وسط المدينة كأحد المصطافين رغم أن موسم الاصطياف قد انتهى.

بعد أسبوع تهيأت خلاله "ديانا" لسفر زوجها في مهمة لن تستغرق سوى بضعة أيام كتب رشوان كل ما حدث معه منذ قدوم هذين الرجلين إليه على ثلاث ورقات بخط أنيق وضعها في مغلف ثم أعطاه لسكرتيرة التي يثق بها. طلب منها أن تبقى أمانة لديها وفي حال لم يعد تعطيه لزوجته. رجاها أن تبقى ذلك سرا ووعدا بأنه سيتصل بها كل يومين وإذا لم يفعل ذلك لمدة ستة أيام تقوم بإعطاء هذا المغلف لزوجته.

حسب أن الفترة ستكون كافية، فقد اخذ وعدا بأن يتصل كل يوم بالسويد إن هو أحب، كما أنهم أكدوا له بأنه لن يتأخر أكثر من يومين أو ثلاثة وفي أسوأ الأمور أسبوع على أكثر تقدير.

اتصل به أحمد بالهاتف، أخبره بأنه سيكون بانتظاره في المطار عند موعد إقلاع الطائرة. أعدت "ديانا" المتوجسة من حركات زوجها وعصبية الغريبة في الأيام الأخيرة حقائبه، رجته أن يهتم بنفسه وأن يحاول اسغلال هذه المهمة لكسب بعض الراحة والاستجمام.

قبل أولاده وهو الذي يتركهم لأول مرة في حياته. ولم تبد فاطمة أكثر اثنا بانفعالاته وعواطفه المبالغ بها وهو يعانقها عند الباب. رجا ديانا أن تهتم بالأولاد ووعداها بأن يبدأ معها من جديد من أجل إعادة التفاهم إلى البيت والأسرة. ازدادت مخلوف "ديانا" لكلماته ورجاءه الغريب، وهزت رأسها وهي تخفي دمعة كادت تظفر من عيناها.

ما أن أقلعت الطائرة وجاء التصريح بفك الأحزمة، حتى فتح أحمد حقيبته التي لم تفارقه لحظة منذ ألتقى برشوان أول مرة، أخرج منها ألبوما للصور دفعه لرشوان وطلب منه أن ينظر فيه، رفع رشوان الغطاء الكرتوني السميك المغطى برسم لطفلة صغيرة ترتدي قبعة زهرية اللون، لاحت له صورة لوجه رجل حليق الدقن ذي شارب أسود منظم وابتسامة خفيفة جذابة، رفع عينيه عن الصورة إلى أحمد الذي أسر وهو يبتسم:

- هذا هو صاحبنا، هاني الجابر، ماركسي سابق وجاسوس لإسرائيل الآن كما تعرف، السن ثلاث وأربعون سنة، متزوج له مكتب استشاري في أحد أحياء المدينة الراقية والتي لا تسمح ظروف الماركسيين بالسكن فيها.

قال جملته الأخيرة وهو يضحك.

لم يدر رشوان كيف أن ملامح هذا الرجل كانت مريحة ومحبية وتختلف عن الصورة التي رسمها له كجاسوس وعميل للعدو. شك بأن يكون لهذا الوجه المبتسم الهادئ القدرة على الخيانة، لكنه أبعد الفكرة عن رأسه وواصل تقليب صفحات الألبوم. كانت صور هاني في كل الصفحات وهو جالس أو

واقف يتحدث في جمع من الناس أو يمشي يعبر الطريق ثم وهو في مطعم وقربه زجاجة بيرة فارغة.

- ستبقى هذا معك قال أحمد، يجب أن تألفه.

استغرق الرجلان بأحاديث طويلة مختلفة طوال الرحلة، طلب أحمد كأس ويسكى وأشار على رشوان أن يفعل مثله لكنه رفض وقال أنه لا يشرب الخمر. ظل أحمد يلقي نكاتا سوقية راق بعضها لرشوان، شاركه الضحك والقي بعض النكات التي تقال بالسويد ولكن بعد أن قام بترجمتها فقدت معناها، لذا ضحك رشوان وحده وهز رأسه أحمد بابتسام مشاركا.

بعد رحلة طويلة حطت الطائرة وقبل أن يبدأ الركاب بالنزول هب أحمد واقفا، اتجه نحو أحد المضيفين، همس بأذنه بضع كلمات، ثم أشار لرشوان أن يتبعه، قادهما المضيف إلى الباب الرئيس بعد أن أغلق ستارة خلفه أخفت الثلاثة عن أعين الناس، بعد لحظات توقفت الطائرة ثم فتح الباب كان السلم يأتي مجرورا خلف عربة صغيرة. وضع في مكانه المحدد، طلب أحمد من رشوان النزول وهو يقول:

- ستلحق بنا الحقائب.

عند السلم كانت هناك سيارة تنتظر، صعد بها الرجلان واختفيا خلف ستائرها الخضرة، السميقة.

- حمدا لله على السلامة وأهلا بك يا دكتور على أرض الوطن.

كانت هذه أول وآخر الكلمات التي قيلت داخل السيارة التي قطعت طريقاً طويلاً لم ينظر خلالها السائق في المرأة ولا للحظة واحدة.

أمام أحد البيوت الضخمة البعيدة عن الحركة توقفت السيارة، نزل منها أحمد ثم أشار لرشوان أن يتفضل.

أحس " رشوان " أن تعابير مرافقة قد اختلفت كثيراً وأنه صار جاداً ومختلفاً تماماً، صعداً درجاً شق حديقة واسعة مملأ بالأشجار، طرق الباب وانتظر، هي لحظة شق بعدها الباب الخشبي البني الضخم. ولاحت وراءه صالة فسيحة مضاءة بصورة مبالغ بها، مد الرجل الذي فتح الباب يده بالسلام على أحمد ثم أشار لرشوان أن يتفضل. ما أن داست قدمه، أول بلاطة في البيت حتى أبصر عدداً من الرجال كانوا كلهم ينظرون نحوه وقد علت وجوههم ابتسامة عريضة. عرف بينهم طلعت فأحس بشيء من الألفة.

هبوا كلهم للسلام عليه أما طلعت الأسمر فلقد عانقه وشدت على يده بحرارة وهو يقول:

- نرجو أن تطيب لك الإقامة بيننا، اعتبر هذا بيتك الصغير وبلدنا بلدك ونرجو أن تأخذ راحتك في كل شيء، لك أن تأمر وعلينا أن ننفذ.

هي لحظة صمت قصيرة، أشار أحدهم وقد بدأ عليه أعلاه مرتبة بيده. كان كل واحد من الرجال الثلاثة الآخرين قد أعد نفسه لأمر ما، أحس رشوان أنهم يقضون أوقاتهم بالحفظ فبعد محاضرة أحمد الطويلة المملة عن إسرائيل وأزماتها

والوطن والقومية أوشك أن يؤكد أن هؤلاء لا يفعلون شيئاً بتلقائية وأنهم يفتقرون للإبداع.

وقف الرجل الأول، لم يحدث وقوفه أي اختلاف بصورته، فقد كان قصيرا سمينا، ولقد أعطت جاكيتته الواسعة ذات الأكمام الطويلة السائبة لجسمه شكلا كرويا يدفع المرء الهادئ إلى الضحك. ابتداء الحديث بجرأة وبصوت مرتفع:

- اسمح لي أعرفك على نفسي، اسمي - هنيدي - ومهمتي معك تعتمد على تلقينك بعض الألفاظ والمصطلحات التي تحتاجها عند استدعاءك للشهادة. كما أنى مسؤول عن إعادة هيكلتك عفوا، يبدو أن التعبير لم يكن موفقا يا دكتور رشوان. أقصد أنى سأقوم بتغيير ملامح وجهك ببعض المكياج وسأصبغ شعرك باللون الاسود لو سمحت لي بذلك خلال يومين سنكون قد أنجزنا كل شئ.

ثم وبحركة آلية توقف، وكأنه شد رجليه بقوة إلى الأرض هتف:

- بأمرك دائما يا دكتور.

لم ينتظر أحد من الحاضرين أن يدلي رشوان بأية ملاحظة. كما أنهم صاروا يؤدون الأدوار المطلوبة منهم وهم موقنون بأنه سيتلقى التفاصيل فقط ولن يستطيع أبدا مناقشتها.

عندما عاد - هنيدي - إلى مقعده كان يحمل إحساسا بأنه قد أنجز مهمته على أحسن ما يكون وأن مسؤوليه ينظرون نحوه بعين الرضى .

وقف الرجل الثاني:-

- تستطيع أن تدعوني حاجي.



قام بهدوء وأدب جم، شاب في أواسط العقد الثالث، طويل نحيل تشوب وجهه سمرة خفيفة وابتسامة بالكاد تبرز لتختفي وراء كلماته إن هو تكلم.

- علاقتي معك يا دكتور قائمة على أساس تعريفك بالمتهم والحديث عن بعض عاداته وسلوكياته التي نعرفها تماما، كما أنى رصدت عددا من الاحتمالات لردات فعله تجاه اعترافك عنه. سندرس هذه الاحتمالات معا وسنبحث في طريقة استجابتك لها. أرجو أن تحمل مثل هذا الأمر أهمية كبيرة، إن الهدوء الذي تتمتع به سيكون لنجاح مهمتنا ونحن أكيدون بأنه بعد شهادتك سيعترف بكل شئ وستعرف عندها يا دكتور مدى الخدمة الجليلة التي قدمتها لنا، وللوطن والأمة.

شكرا.

أنهى المدعو حاجي كلماته بنفس النبرة الهادئة التي بدأ بها ثم ارتد إلى مقعده وجلس بثقة دون أن ينتظر أية إشارة أو تعليق.

ما إن عاد حاجي إلى مقعده حتى تقدم الرجل الثالث الذي لم تستطع بدلته وربطة عنقه إخفاء اندفاعه صدره واستدارة ذراعيه. حالما وقف ابرز جسدا رياضيا صلبا، لكنه كان فيما يبدو مرنا ورشيقا، وبسرعة ألقى بضع كلمات ذكر بها اسمه ومهمته:

- ايهاب، مرافقك وحارسك الشخصي.

انتهى العرض، ولم يكن قد التقط رشوان أنفاسه من السفر بعد، ساد الصمت قليلا، استرخى رشوان الذي مازالت حواسه متحفزة، تكلم

الرجل الكبير لأول مرة والذي لم يكن قد نطق بأية كلمة طوال الوقت.  
قال بلهجة جافة وبصوت منخفض.

- نريد لهذه المهمة أن نتجح يا دكتور.

ثم وبحركة آلية وقف، هب كل من الغرفة واقفا.

- سأترككم الآن .

سلم على الدكتور دون أن ينظر نحوه وسار نحو الباب لحق به  
طلعت الأسمر، سبقه بخطوات فتح له الباب:

بانتظار أوامرك سيدي.

(2)

لقد استطاع رشوان أن يتعرف على كل شئ حوله، لكنه لم يستطع  
أن يخلع نفسه من ذلك الشعور الغريب الذي يدفعه لأن يحس بأنه في

حلم طويل لا تبدو له نهاية، أو أنه في غيبوبة متعبة، يتحرك دماغه بمراقبة الأشياء التي تدور دون أن يكون قادرا على المشاركة فيها أو تعديل أي جزء منها.

كانت الأشياء غريبة، الحفنة من الناس التي تعرفه، الرجال الذين يدخلون كلما لاح صوت محرك سيارة قريب إلى البيت، ثم انزواؤهم في غرف البيت العظيم لوقت طويل خلف الأبواب المغلقة. حقائب سوداء كثيرة تشبه تلك التي كان يحملها أحمد. حتى أحمد اختفى ولم يعد يظهر في الصورة، المرافق كان كأنه يحرس سجيننا وليس حارسا شخصيا. كان يراقب كل حركة يتبعه أينما توجه وكيفما تحرك حتى أنه كان ينتظر قريبا من باب الحمام إن هو دخل لقضاء حاجة. حسب أن حارسه هذا لا ينام ولا يحتاج للتغوط كما الناس.

كيف كان ينتهز الفرض لذلك.

في ذات اليوم الذي وصل به "رشوان" زار المنزل بعض الأشخاص الذي دخلوا بسرعة دون أن يعيروه انتباها. كان متلهيا مع – هنيدي – الذي ابدى انطلاقا بعد أن تحرر من قيود المسؤولين وصار يلقي نكاتا سمجة، ويأتي بحركات صبيانية. مل رشوان تلك اللجة الغربية التي يتحدث بها :-

هنيدي – أيضا والذي صرح قبل أن يغادر البيت بأنه قصد هذه اللجة حتى يعتاد عليها رشوان الذي سيتكلم بها في المحكمة.

و عندما سمح لرشوان بأن يخلع ملابسه ويستريح بعد أن وصلت الحقائب، كانت الساعة قد قاربت الثانية صباحا. كان يحسب بأنه سينام في أول لحظة يصل بها الى السرير، فالإرهاق الذي يشعر به كفيل بتسليمه للنوم يوما كاملا. لكنه ما أن استلقى فوق السرير الوثير في الغرفة المعدة له حتى تنبعت حواسه كلها، وفر النوم من عينيه ولم تلح أية علامة على ان هناك احتمالا لعودته.

قضى الليل يتقلب على السرير لربما اقتتنص لحظات إغفاء قصيرة قطعتها أصوات أبواب تفتح، وأرجل تتحرك ومحركات سيارات تبدأ عالية ثم تبدأ بالتلاشى حتى تختفي. ود تلك اللحظة لو أنه في البيت، مع ديانا والأولاد سيفتح حوارا عميقا مع فاطمة وسيكرس وقتا أطول لمساعدتها على الخروج من أزمتها، سيفعل المستحيل وسيطرح عليهم مشاريع جديدة تساعد على تجديد روح الأسرة، ود لو أنه في بلدة في قرية أبيه في فصل ربيع فوق القبر الذي احتوى والده يبكي، يتكلم، يقرأ القرآن، ود رشوان لو أنه في لندن مع أهل الذين لم يرههم منذ زمن بعيد.

فكر بديانا والأولاد، وبسكرتيرته وقرر أن أول شئ سيطلبه في الصباح هو إجراء مكالمة مع السويد، سيحاول أن يهاتف سكرتيرته أولا، سيفهمها أنه سالم وأن كل شئ على ما يرام لن يفهم أحد منهم لغته، وإذا وجد فرصة مناسبة سيهاتف ديانا، لقد افتقدها منذ أن خرج من باب المنزل .

ما هكذا تكون الأمور بينهما عادة، خمن بأن ذلك حدس ينبيء بفأل سيئ وإلا لم هذا الشعور الذي راوده عندما ودعها وكأنه كان ينسلخ عنها ومنها ويسير إلى العدم؟

إنها السنين الطويلة التي عاشها معها، الألفة والتعود، نقطة الضعف الإنسانية، الخوف من الوحدة والانعزال والخوف من

الاختيارات والتجارب الجديدة، إنه العمر ومرحلته الهادئة. جاءت ديانا بكل ما تتحلى به من ذوق وهدوء، قبلته وغفت على شعيرات صدره المشرع.

- أراك صرت أعظم في داخلي يا امرأة لأنني وحدي، ولأنني خائف.

في الصباح طرق الباب طرقا خفيفا، بالحال صرخ: من؟ جاءه صوت حارسه إيهاب من خلف الباب:

- الإفطار جاهز يا دكتور.

تململ قليلا ثم قال:-

- لحظات يا إيهاب وألحقك.

- لا تتأخر.

جاء صوت إيهاب الأمر. الذي بدأ أنه لم يبرح مكانه.

أي حارس هذا؟ يعاملني وكأنني جندي صغير في معسكر خاص به، أو مجرم في سجن، ثم في لحظات يصبح طيعا مستعدا لتلبية أوامري.

لكني لم أطلب شيئا بعد. قال بصوت مسموع وهو يدفع اللحاف بعيدا.

لا اعتقد أنه سيلبى لي أي أمر لو صدف وطلبت.

وقف، دس رجليه بنعل خفيفة أحضرها معه من السويد، قرر أن يخرج بالبيجاما، ما أن فتح الباب حتى برز إيهاب أمامه مسندا ظهره للحائط المقابل وقد علت سحنته ابتسامة جافة.

- صباح الخير يا دكتور- الجميع بانتظارك.

أفهمته نظرات إيهاب الساخرة بأنه يجب أن يقوم بخلع بيجامته، نظر برهة وابتسم. - لا بأس.

رجع بعد أن ترك الباب مشرعا إلى الغرفة، سمع صوت خطوات إيهاب خلفه.

- ما رأيك أن تأخذ حماما معي؟ صرخ الدكتور.  
- فيما بعد الوقت ليس مناسباً الآن.

هتف إيهاب وهو يضحك:

حتى الدكتور رشوان استهجن ما نطق به من لحظات ظن أنه لن يجد وسيلة أخرى تعبر عن تبرمه من مرافقه الذي ما فارقه منذ أن دخل هذا البيت، فقع ضحكه حاولت أن تفهم إيهاب بأنه يداعبه، لكنها كانت ضحكة مريضة لا تحمل أي معنى للفرع أو المداعبة.

لم يفاجأ رشوان بأية مسألة واجهته منذ أن وصل إلى هنا بقدر مفاجأته باللكمة الصاعقة التي سقطت فوق عينيه اليسرى تماما بغفلة من عمره. لم يكن ليشك بأنها ستكون. ولا حتى في تلك اللحظة التي وجد فيها من إيهاب ألفه وود عجيبين. حتى أنه أوشك أن يبثه أحزانه وأن يحدثه عن الأولاد وفاطمة واشتياقه لديانا، كانا في الحديقة الخلفية

للبيت، عندما توقف رشوان تحت شجرة ليمون أثقلت بالحببات الخضرة والصفرة المعلقة بغصوتها، قطع ورقة ثم بإصبعه شقها نصفين فانبعث منها عبير عظيم، أسكره.

قال إيهاب أنه يعشق رائحة أشجار الليمون.

هز رشوان رأسه وأكد أنه مثله تماما. أخذا يراقبان معا الحببات التي تتحول بدعة وهدوء إلى الأصفر. بعضها اكتمل، والبعض وشى بشذرات صفراء كأنها ريشة فنان تسقط أولى الضربات على لوحة الرسم.

في تلك اللحظة كان رشوان سابحا في حلم جميل، أبعد عنه تعب الليل وأرقه، وبعد أن تحدث مع سكرتيرته وزوجته والأولاد لأكثر من ساعة وجد أن الأشياء أفضل كثيرا مما كان يحسب، لقد تركوه يطلب الخط بنفسه وخرجوا كلهم من الغرفة.

كل ذلك لم يفاجئه بقدر ما فاجأته تلك اللكمة التي سقطت فوق عينه اليسرى وأوشكت أن تفقأها. اختل توزانه واندفع ساقطا إلى الأرض، أسرع إيهاب الذي ما زالت دموع رشوان فوق قبضته وتلقفه قبل أن يسقط وهو يصرخ:-

- أرجوك اعذرني يا دكتور.

استيقظ الدكتور في غرفته بعد فترة من الوقت، فتح عينه اليمنى وبصعوبة صار يحاول استجماع الصور المتكونة أمامه بعينه اليسرى التي كان يحسها ثقلا هائلا في رأسه.

وأخيراً، وبصعوبة صارت توضح أمامه الصور، أو من أبصره  
كان طلعت الأسمر، مبتسماً. متأنقا كعادته، وكذلك هنيدي وحاجي  
وإيهاب القذر.

كلهم كانوا يبتسمون، وكل واحد منهم قال حمداً لله على السلامة،  
حتى إيهاب، قالها بإخلاص وتعاطف، وأمام نظرتة المتسائلة عما يدور  
حوله. تحشرج طلعت وقال بصوت هامس:

- سأشرح لك كل شيء.

بعد فترة من الوقت، وبعد أن عوملت عينه بكمامات باردة ودهون  
مسكنة، وبعد أن أعطى دواء مسكناً للألم، وكأس ليمون بارد أعد له من  
ثمر الشجرة التي لكم تحتها. بدد " طلعت " خوف رشوان الذي شك بأن  
الأسلوب معه قد تغير وأن الأمور انقلبت صراحة من الحسنى إلى  
السيئة، وأعلم بصراحة متناهية بأنه:-

لا يعقل أن تكون موقوفاً بتهمة العمالة لإسرائيل ولا يبدو ذلك على  
مظهرك كل ما فيك يا دكتور لا يدل على أنك تعيش أجواء اعتقال  
وتحقيق، لذا اضطررنا لهذه اللكمة. قال طلعت دون أن يتخلى عن  
ابتسامته:

اعتذر لك بشدة عن الألم الذي سببناه لك واعتذر بإخلاص عن  
إيهاب لأنه أجبر على ذلك نحن نعرف مدى الود الذي نشأ بينكما لذا  
أريدك أن تنسى ذلك.



كان رشوان الحائر المتألم واثقا بأنه يجب أن ينسى ذلك بالتأكيد، وان هذا النسيان لن يكون مؤقتا إنما إلى الأبد، لم يعلق بأية كلمة، ولم يكن معنيا بأن يعالج كلمات طلعت بالصيغة التي ستريحه كما اعتقد هذا الأخير، فالخوف الذي أوشك أن يختفي مع الصباح عاد وتفتح ثانية في كل خليه من خلايا بدنه، فهذه القسوة التي عومل بها وهذا الانقلاب العجيب في معاملة إيهاب له مرة واحدة ودون مقدمات نذير شؤم، لذا سيتربص من الآن كل حركة وكل فعل حتى الأفعال الودودة.

- أي تعب هذا الذي ستحتمل يا رشوان؟

نبس بصمت.

في الصباح عندما أيقظه إيهاب طلب منه ألا يخلق دقنه لم يحاول الدكتور مناقشته ذلك أو حتى السؤال عن السبب في ساعة الظهيرة جاء حاجي وجلس معه حتى موعد الغذاء، وحذره من انفعال المتهم وطلب منه الصمت والثبات أمام أي موقف استفزازي سيتعرض له. سواء من المتهم أو من محاميه أو من الحضور. أخبره أن محاميه رجل محنك وداهية حسب تعبيره، علمه ما سيقول بالحرف، كيف استلم مبلغا كبيرا، من الدولارات. مائة ألف، ومجموعة من الصور والوثائق من أحد الضباط اليهود الكبار أعطى كلمة السر لتكون المدخل للقاء

هاني الجابر وكيف أنه لم يجلس معه طويلا خوفا من أن يكون مراقبا. حدد له المكان الذي يفترض انهما قد التقيا به.

بعد ان تناولا الغذاء خرج حاجي ورشوان وحدهما في سيارة حاجي الذي أخذه إلى حيث اتفق والتقى بهاني فيه. دار به في المكان أكثر من دوره، مطعم هادئ علقت عليه يافطة كتب عليها باتسري، احتل شارع هادئ محايد أقصى البلدة. واحتل كراسيه عشاق ما زالوا

في أول العمر، فتيات كن يتضحكن، يشعلن السجائر ، يتبادلن أحيانا أحاديثا هامسة، كل واحدة منهن كانت " فاطمة" صغيرة الغالية، لكنه وجد في وجوههن براءة عجيبة لم يكن بقادر على أن يالفها.

- لن نتمكن من الجلوس هنا.

قال حاجي.

- لا بأس، أعتقد أنى حفظته.

- صرح رشوان وهو ينظر إلى المكان بتمعن.

في الليل وفي البيت جاء ( هنيدي ) وهو يحمل بيده حقيبته التي أوشكت أن تلامس الأرض. استأذن الدكتور بان يجري بعد التعديلات على حلاقة شعر، وقف الدكتور على الفور واتجه إلى حيث أشار هنيدي عليه أن يجلس دون أن يتفوه بأية كلمة، بخفه تناقض الرجل حرك هنيدي مقصا حادا بين أصابعه فوق شعر " الدكتور"، وبلحظات كانت سحنته وكأنها قد تحركت من مكانها، هذا ما أبصره عندما نظر بالمرأة، لقد اختفت

العلامة تلك التي كانت فوق جبينه منذ ميلاده، وغطت عينيه خصلة شعر كانت ملقاة بعيدا أقصى رأسه:

- ما رأيك؟

سأل هنيدي المبتسم.

- أشار رشوان بيده لا بأس.
- بقى أمر واحد، قال هنيدي. تفضل يا دكتور.

عاد الدكتور وجلس ثانية تحت يدي هنيدي التي أخرجت من الحقيبة هذه المره مجموعة من أنابيب المعجون، صفها على طاولة قريبة، اخرج عددا من الفرش ذات الأحجام المختلفة، ثم طفق يخفق الألوان بوعاء صغير بإحدى الفرش. وبعد أن تأكد من المزيج الذي يريده، صار يمسح هذا المزيج بأناه على رأس الدكتور الذي اغمض عينيه بانكسار.

ما أن انهى هنيدي عمله حتى كان الدكتور رشوان قد وصل إلى حافة الانفجار. لكنه كظم غيظا عنيفا كان يتأجج في صدره.

أشار عليه هنيدي أن ينظر إلى المرأة، هز رأسه رافضا.

قال بصوت خافت منكسر:

- هل يسمح لي بالذهاب إلى الغرفة.
- بالطبع، تفضل.

هتف هنيدي الذي تابع، لكن إلى وقت قصير، أمامك الكثير لتفعله لا تنس المحاكمة غدا.

عندما دخل رشوان الغرفة، تردد في النظر إلى المرأة كان يشعر بأن هناك إنسانا آخر فيه، أحس لو هله أنه خرج من ذاته وركن في زاوية ما، وادخل فيه شخص آخر مختلف، قرر أن الرتوش التي أجريت له ليست السبب في هذا الشعور، لكنها هي التي أوصلته إلى نقطة اليقين والتوهج. من تلك الساعة التي جاءوا بها إلى مكتبة وهو يشعر بأنه يسقط في هاوية مظلمة، وكان يحسب بأنه سيصل إلى نهايتها

سريعا لكنه وحتى اللحظة لم يتوقف. ها هو يرقب نفسه تسقط بعيدا بلا عودة.

فكر أن يندس تحت اللحاف، لكنه تذكر وصية هنيدي:-

- لا ماء ولا لمس يا دكتور لمدة ساعة على الأقل.

ضاقت به الغرفة أكثر فكر بالخروج منها ثانية لكنه عاد يتوقف عندما تأكد بأنه لن يجد ما يفعله هناك.

مضى وقت ظل خلاله مستمرا في مكان وسط بين الباب والسرير والمرأة، أحس خدرا يداعب قدميه، تحرك ببطء نظر نحو المرأة كانت تدعوه للنظر فيها- سمعها تهتف به أن يقترب قالت تعال، انظر ماذا صرت.

عندما ابصر صورته اهتز بعنف، شعره الأبيض تلاشى واكتسى رأسه شعرا جديدا جعله يبدو رجلا جديدا حتى على رشوان، ظل محمقا في المرأة، ثم وبدون وعى منه بصق، فغرقت المرأة بلعابه الكثيف.

## البداية

كانت المحكمة ضاجة بالنالس والحركة، نساء وأطفال فوق أذرعهن أو متعلقين بجلابيهن البالية المتسخة، المحامون ببدهم العتيقة الكالحة والحقائب الجلدية المتآكلة، سيارة للشرطة، في الخارج رجال الشرطة في الداخل. رجال أيديهم مكبلية، طالت لحاهم واهتزت ملابسهم. صراخ، أصوات أسماء، عبر من بين كل هؤلاء بين ثلاثة،

حارسه إيهاب وحاجي الذي ملفتى يعيد عليه ما يجب أن يقوله وطلعت الأسمر، ادخلوه من باب خلفي، جلس يلتقط أنفاسه بصعوبة.

كان خائفا وكأنه يساق إلى الموت، رغم التأكيد من حاجي وطلعت بان الأمر سيتغرق دقائق فقط. انقضت ساعة احتسى خلالها فنجان قهوة وكأس شاي وأخذ سيجارة من إيهاب أشعلها للمرة الأولى في حياته، بعدها دخل رجلان يرتديان لباسا عسكريا، أديا التحية ثم اعتذرا لرشوان لأنهما سيضطران لوضع الكلبشات في يديه.

أعطاهما يديه صاغرا، ودع طلعت الذي ارتسمت على وجهه علامات توصل بأن لا يفشل عندما دخل القاعة بعد أن سمع نداء اسمه كانت مكتظة لدرجة دفعته للتحديق بحثا عن المتهم، تعالت صرخات الاحتجاج وكلمات وكلمات السخرية سمع أهدهما يهتف. من أي مسرح هابط جئتم به؟

سمع طرقات القاضي الذي اعتلى المنصة بلباسه العسكرية وقد أحيط بعسكريين أدنى رتبة صرخ بالناس الضاجة بالصخب بأنه سيضطر لجعل المحاكمة سرية إذا استمر اللغو. أخذ الضجيج بالتلاشي استمرت بعض الأصوات لفترة من الوقت ثم اختفت تماما.

اقترب أحد المرافقين من رشوان، فك الكلبشات التي لم تعرق على يديه بعد، وتقدم به إلى المدعى العام كان احمد المختفي منذ جاء به إلى هنا قد احتل مقعدا بجانب الرجل الكبير الذي زاره أول مرة حاول أحمد

تلافي نظرات رشوان التي انصبت عليه، تلهى بترتيب بعض الأوراق والملفات الملقاء أمامه على الطاولة.

مشى رشوان بخطى بطئية نحو مقعد نصب فوق قاعدة مرتفعة قليلة أمام القاعة. عندما حطت مؤخرته على المقعد، أبصرت عيناه ذلك الرجل الذي يراه للمرة الأولى حيا، هاني الجابر. نظر إليه يتمعن كان يبدو عليه الهدوء وقد اسند ظهره المقعد المخصص له. التقت عيونهما معا، أحس بان الرجل يرثى له، حاول أن يبعد ناظريه عنه لكنه لا حظا مرغما بأنه مرسوم على شفثيه تلك الابتسامة الغريبة الساحرة التي بدت وكأنها شئ من فم الرجل.

\* \* \*